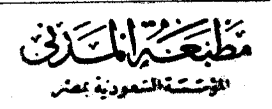
كتاب
دلائل الرسوخ
في
الرد على المنفوخ

للعالم العلامة الفاضل الفهامة الشيخ عبد اللطيف
ابن الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن ابن الشيخ محمد الحنبلي
نفعنا الله تعالى والمسلمين به - آمين -

طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ
على ابن الشيخ عبد الله آل ثاني
حاكم قطر سابقاً
أثابه الله جزيل الأجر والثواب - وجعله وقفاً لله تعالى



الطبعة الثانيـــــة

١٣٨٢ هـ — ١٩٦٢ م

تصدير دلائل الرسوخ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ؛

فإن كتاب « دلائل الرسوخ فى الرد على المنفوخ » من مؤلفات الإمام العلامة الأوحد ، والعلم المفرد : الشيخ عبد اللطيف ابن الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، من أتم الكتب فائدة ، وأجزلها عائدة ، تضمن الرد الْمُسْكِتَ المفيد ، والقول الجيد السديد ، المؤيد بأدلة الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة النبوية ، وإجماع السلف الصالح من هذه الأمة على ما لَفَّقَهُ طاغية العراق ، داود بن جرجيس ، داعية الكفر والضلال ، فقد أرسل هذا المفترى المفتون رسالة إلى بعض الناس ، يدعوه بها إلى الإشراك بالله ، ويزعم المخذول أن الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ليس بشرك ، وإنما هو توسل مندوب إليه ، وأن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ليس بعبادة بل هو نداء ليس داخلا فى حد العبادة ، ولا من جملتها ، فلا يشمله قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الدعاء مُخُّ العبادة » وأجاز اتخاذ الوسائط بينه وبين الله تعالى ،

ورغب فى دعاء الأموات والغائبين ، وأن ذلك توسل مندوب إليه وألْحَدَ فى نصوص الكتاب والسنة ، وأقوال سلف الأمة ، وحمل الآيات القرآنية على غير ما قال به النبى وأصحابه ، وكذب على أهل العلم ترويجاً لباطله ، حتى التبس أمره على كثير من جهلة المسلمين ، لأنه يذكر أقوالا يزعم أنها فى كتب المحققين من أهل العلم ، وأنها مقبولة لديهم ، وهو فى ذلك كاذب حتى أنه فى كتبه ينقل إيرادات أوردها شيخ الإسلام ابن تيمية ليرد عليها ليحذرها الناس ، فيذكر الإيراد محتجا به على باطله ، ويسقط الرد الذى رده به شيخ الإسلام ، وهذا العمل من أكبر الخيانة عند أهل العلم ، فانتدب للرد عليه كاشفاً لأسراره وهاتكا لأستار كفره وضلاله ، ومبيناً بطلان ما ذهب إليه من قبيح أقواله وأعماله ، الشيخ الإمام عَلَمُ الفضائل ، وقدوة الأكابر الأماثل : عبد اللطيف بكتاب جليل سماه : « دلائل الرسوخ فى الرد على المنفوخ » فحاز هذا الرد القبول والإعجاب عند أهل البصائر من علماء الأمصار حتى قال قائلهم :

إنَّ ابْنَ جرجيسَ بِرْذَوْنٌ وَذا أَسَدٌ
وَهَلْ تُقَاسُ أُسُودٌ بالْبَرَاذِينِ

وكان تأليفه لهذا الرد قبل وفاته بنحو سنتين لأنه ألَّفه سنة ١٢٩١ ومات رحمه الله سنة ١٢٩٣ .

وقد طبع هـذا الرد العجيب سنة ١٣٠٥ ونفذت طبعته وقلّ وجوده حتى نُسى أو كاد أن ينسى ، وما زلت أبحث عنه لأقوم بإعادة طبعه نُصرةً للدين ، وقمعاً للملاحـدة المارقين ، حتى يسّر الله لنا الوقوف عليـه فى مكتبة عين أعيان الحجاز ، العالم السلفى الفاضل الشيـخ محمد بن حسين نصيف الشهير ، فحين الوقوف عليه عرضته على أنظار صاحب السمو الشيـخ على بن عبـد الله آل ثانى حاكم قطر سابقاً ، فبادر بإصدار أمره العالى بطبعه وقفاً لوجه الله تعالى كعادته فى كل ما يأمر بطبعه على نفقته ، أو يشتريه من المكاتب والكتب ، حفظه الله ! وأدام له السعادة والسيادة بمنه تعالى وكرمه .

وللعلامة المحقق الشيـخ عبد اللطيف رد آخر أوسع من دلائل الرسوخ رد به أيضاً على طاغية العراق الداعى إلى تأييد الكفر والضلال : داود بن جرجيس ، ولـكنه ـ رحمه الله ـ مات قبل إكماله ، قالوا لأنه اشتغل بتأليف ردّ آخر على طاغية من أهل نجد من إخوان ابن جرجيس فتم هذا الرد وسماه «مصباح الظلام» .

وله قصيدة رائية يمدح بها داود ، فرد عليه عمى عبد الرحمن ، وكذلك رد عليه الشيـخ أحمد بن مشرف وسمى الشيـخ عبد اللطيف رده الكبير : « منهاج التأسيس » فتصدى لإكماله شيخنا علامة العراق : السيد محمود شكرى الآلوسى مؤلف : « غاية الأمانى فى الرد

على النبهانى » ، وقد طبع الرد وإكماله على نفقة والد صاحب السمو الشيخ على آل ثانى فحق لنا أن نتمثل بقول القائل المصيب غير الفائل[1] .

بأبه اقتدى عَدِىٌّ فى الكرمْ ومن يُشَابِه أَبَهُ فما ظلمْ

وقد رد أباطيل هذا الملحد العراقى جماعة آخرون من أهل العلم منهم الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن والد الشيخ عبد اللطيف ، وسمى رده : « القول الفصل النفيس فى الرد على داود ابن جرجيس » ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين رد عليه بردين أحدهما اسمه :«الانتصار» والثانى اسمه :«تأسيس التقديس» ورد عليه شيخ مشايخنا السيد نعمان الآلوسى برد سماه : « شقائق النعمان فى رد شقاشق داود بن سليمان » وقال بعض علماء العراق مادحاً له :

مَزامير دَاوُدِ النَّبِيِّ لنَا غِنًى بِهَا عَنْ سَمَاعٍ فى شَقَاشِقِ دَاوُدِ
فَدَعْ عَنْكَ يَا نُعْمانُ رَدَّ اعْتِرَاضِهِمْ ولا تَرْمِهِ إِذْ جَاءَ يَعْوِى بِجُلْمُودِ

ورد عليه غير هؤلاء من أهل العلم نصرة لدين الله على حد قول القائل :

---

(١) الفائل أى المخطىء .

وإذا هُمُ سمعوا بمبتدِعٍ هَذَى صاحوا به طُرًّا بكل مكان

نسأل الله أن ينصر الإسلام والمسلمين، ويذل الشرك والمشركين بمنه وكرمه.

كتبه

محمد بن عبد العزيز بن مانع

تقاريظ الكتاب

قد قرظ هذا الكتاب جملة من الأفاضل الأدباء منهم : عبد القادر أفندى البغدادى الحنفى النقشبندى القادرى وذلك بقوله :

عبد اللطيف جزاهُ الله خالقنا يوم الجزاء بأجرٍ غير ممنونِ
هو الهمام الذى شاعت فضائلهُ
فى الشرق والغرب من نجدٍ إلى الصينِ
بحرٌ من العلم يبدى من معارفهِ بديع درٍّ عزيز القدر مكنونِ
حمى طريق رسول الله عن شبهٍ منسوبة لجهول غير مأمونِ
وساوس وأقاويل ملفقة كأنها بعض أقوال المجانينِ
ظن ابن جرجيس من جهل ومن سفهٍ
لم يبقَ فى الناس ذو علمٍ وتمكينِ
فقال ماقال من زورٍ ومن كذبٍ مزخرف قد تبدَّى غير موزونِ
ولم يكن يغنى عنهُ الظن فانعكست ظنونهُ فى مجالٍ غير مظنونِ
إذ ردَّهُ نا كصاً يدعو النجاء على أعقابهِ خسر الدنيا مع الدينِ
إن ابن جرجيس برذون وذا أسدٌ وهل تقاس أسود بالبراذينِ

دلائل أشرقت كالشهب أرسلها عبد اللطيف رجوما للشياطينِ
جزاهُ مولاهُ عنا كل صالحةٍ من جنة الخلد فى يوم الموازينِ

* * *

وقال حضرة العالم العلامة ، والنحرير الفهامة ؛ مولانا الأستاذ السيد مصطفى أفندى مفتى السادة الحنفية فى مدينة الحلة الشهير بواعظ زاده .

أدين الله تعالى بجميع ما فى هذا الكتاب ، الحاوى لكل معنى منيف ، وأبرأُ إليه تعالى من الاعتقادات الفاسدة ، والأقاويل الزائفة عن الحق العارية عن كل فائدة ، وأنزههُ سبحانهُ وتعالى عما تقوّلهُ أهل الأباطيل ، وعللوهُ بتعليل عليل ، وأشكر فضل من أنشأ هذه الفوائد الدينية ، والقواعد الإسلامية . فجزى الله العلماء العاملين عن الإسلام والمسلمين خيراً ، ورزقهم الأمن والأمان والبشرى فى الحياة الدنيا والآخرة ، والحمد لله أولا وآخراً و باطناً وظاهراً .

وأنا الفقير إليهِ عزّ شأْنه السيد مصطفى نور الدين ابن المرحوم السيد محمد أمين الواعظ غفر لهما آمين .

وقال المولى البارع ، ذو النور الساطع ، والفضل الناصع ، الفاضل الأمجد ، الشيخ أحمد سلمهُ الفرد الصمد .

نحمدكَ اللهمّ على أن جعلت لهذا الدين من العلماء العاملين أنصاراً وأعواناً ، ووفقتهم للذود عن سنة سيد المرسلين ، والشرع المتين سرًّا وإعلاناً .

فجرّدوا قواضب ألسنتهم لقطع ألسنة المبتدعين ، وحدوا أسنة أقلامهم لسرد شبه الملحدين ، فكانوا أعظم شأناً وأعلا برهاناً .

ونصلي ونسلم على نبيك ورسولك وصفيك وأمينك ، الذى ختمت بهِ الرسالة وأزلت بنوره ظلمة الضلالة ، ورفعت ببعثتهِ الجهالة بعد أن هلك الناس كفراً وطغياناً ، فكسر الأصنام ، وأزاح الطغيان ، وقلع الآثام ، وقمع الأوثان ، فبدل العصيان إذعاناً ، وأحال الشرك إيماناً ، صلى الله تعالى عليهِ وسلم وعلى آلهِ الذين اتبعوا أثرهُ ، وساروا سيرهُ ، وحفظوا سنتهُ ، ونصروا ملتهُ ، فارتفع بهم الشرع بنياناً ، وقوى الدين أركاناً .

وعلى أصحابه الراشدين الهادين المهدين ، الذين هم نجوم الاهتداء ،

وبدور الاقتداء ، جزاهم الله سبحانه وتعالى عن المسلمين خير الجزاء ، وأثابهم إنعاماً وإحساناً ، وبوأهم من فضله غرفاً وجناناً .

أما بعد :

فقد نظرت فى عبارات هذا الكتاب نظر ناقد ، وتأملت مقاصده فصلا بعد فصل وباباً بعد باب تأمل قاصد ، وقلبت ما فيه ظهراً لبطن ، وفناً بعد فن ، فألفيته قد اشتمل على فصل الخطاب ، وأصاب عين الصواب ، وتميز بالحق عند أولى الألباب ، فما مولى أحكم ترصيفه وأجاد تصنيفه وأبدع تأليفه ، ووضع أركانه ، ورفع وأعلا شأنه ، إلا رجل عضّ على الشريعة بالنواجذ ، وحملته غيرته الإسلامية على رد ملحد مبتدع نابذ ، قد لعب بعقله الشيطان ، وسلك به كل فج من العصيان ، فكتب أوراقاً تشتمل على خرافات من البدع والضلالة ، وتحتوى على ترهات تنادى على صاحبها بالسفه والجهالة ، ثم نشرها على ضعفاء العوام ليضلهم بها عن سنة خير الأنام عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، ترويجاً لمذهبه الفاسد ، واعتقاده الكاسد ، وطلباً لتحصيل أمانيه الدنيوية ، وحظوظه الحيوانية ظناً منه أن الشريعة المطهرة قلت أنصارها ، وأظلم منارها ، واستقلت ركابها ، وعز طلابها ، وذلت أسودها ، واشتبهت حدودها ، ولم يدر أنها محاطة بأبطال يضيق عنهم المجال ، وتسد بهم الخلال ، إذا قارعوا قرعوا ، وإن صارعوا صرعوا ،

وإن حوربوا حربوا ، وإن نوزلوا سلبوا ، دروعهم كتاب الله وأسنتهم سنة رسول الله ، لسانهم سنان ، وسنانهم لسان ، وسلاحهم طاعة وإيمان ، فقيض الله لرده مؤسس قواعد هذا الكتاب ، ومجرى ينابيع هذا البحر العباب ، الفاضل الذى شهدت بكماله ، فضلاء البلاد ، وعمت فضائله كل ناد ، العالم العامل والبدر الذى يقصر عن مجاراته كل متطاول ، الورع الزاهد ، والتقى العابد ، طود القلم الشامخ ، وركن المجد الباذخ ، صاحب التصانيف المفيدة ، والتآليف العديدة ، الشيخ عبد اللطيف الحنبلى ، غمره المولى عز وجل بلطفه الجليل الجلى ، فرده بهذا الرد الحقيق بالقبول المرضى ، عند ذوى العقول فهو للمسلمين ترياق نافع . وللمبتدعين سم ناقع ، جزى الله تعالى مؤلفه خير الجزاء ، وسلك به سبيل الصلحاء ، وجعلنا ممن اقتفى أثر النبى صلى الله عليه وسلم ، واتبع سنته ، وصيرنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

وقال الفاضل ، والعالم العامل ، جناب على أفندى المدرس بمدينة البصرة .

لاح نور الهدى وزال الضلال ودهى الشرك والعنـاد زوال
وتجلت شمس الـكمال عياناً بعد ما كان دونها أظلال
ورياض التوحيـد جاد رباها من سما الحق عارض هطال
ويد الجهبـذ المحقق للحق الإمام المهـــذب المفضال
والهزبر الهمام والعالم النحـ ـرير من عنده تنتهى الآمال
ذاك عبد اللطيف كنز المعالى هو بحر للعـلم بحـر زلال
أحكمت للورى دلائل قصد صار فيها على الهدى استدلال
رسخت فى قلوب قوم هداة وذوو الزيغ عن هنالك زالوا
رفعت عن عيوننا كل غبن وبها زال داء شرك عضال
ولها مبتغى الهدى فليبادر فلها ساغ أن تشد الرحال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ؛ الذى يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .
أرسل الرسل وأنزل الكتب لتأصيل الأصول وتحقيق الحقائق .

فقامت حجة الله على المكلفين من الخلائق .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص لله صادق .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بأحسن الملل والطرائق ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بجهاد كل كافر ومنافق .

أما بعد : فقد وقفت على أوراق أرسلها الملا داود بن سلمان الجرجيس العانى العراقى إلى بعض أصحابنا ، فرأيت فيها من الصد عن سبيل الله ، والدعوة إلى عبادة الأولياء والصالحين ودعائهم والحث على قصدهم فى الملمات والشدائد ، والإلحاد فى آيات الله وتحريف الكلم عن مواضعه ، ما لا يسع السكوت عليه .

فإن الله تعالى بعث محمداً بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأمر بجهاد الكفار والمنافقين بالحجة

والبيان ، كما أمر بجهادهم باليد والسنان . قال تعالى : ﴿ وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

قال ابن كثير : « يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض ، وقوله : إلا قليلا ، أى قد وجد منهم من هـذا الضرب قليل وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيره ، وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هـذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر . وقوله : واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه أى استمروا على ما هم فيه من المعاصى والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فاجأهم العذاب .

وقال أبو السعود : أولو بقية من الرأى والعقل أولو فضل ، وخير ،

وسميا بها لأن الرجل إنما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله ، ومن قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا . انتهى »

وقد ينتفع بهذا من أراد الله هـدايته واستعماله فيما يرضيه من توحيده وطاعته ولو سبق منه رده والصد عنه . قال الله تعالى ﴿عسى الله أن يجعل بينكم و بين الذين عاديتم منهم مودة . الآية﴾ . وما أحسن ما قيل :

أبن وجه نور الحق فى صدر سامع	ودعه فنور الحق يسرى و يشرق
سيؤنسه يوماً و ينسى نفـــــاره	كما نسى التوثيق من هو مطلق

فصـــل

قال العراقى : ـ فى رسالته ـ أعلم أنى وجدى ووالدى بيت علم ، وعقيدتنا عقيدة السلف وليس الآن فى بغداد من هو على مذهب الإمام أحمد غيرى وأنا تابع لأقوال الشيخين ابن تيمية وابن القيم .

والجواب : أن يقال مذهبك وعقيدتك وما أنت عليه قد اشتهر وعرف من رسائلك وسمع منك شفاهاً ، ونقله العـدول ، ولم يزل يتواتر من وقت قدومك الجبل والقصيم ، واجتماعك بالشيخ عبد الله أبى بطين ، وما وقع بينكما من المناظرة فى مسمى العبادة وغيرها ، كل

ذلك وصل إلينا ، وتواتر لدينا ، واستفاض استفاضة تورث علماً ضروريا أنك داعية إلى دعاء الصالحين والأولياء ، وندائهم بالحوائج والاستغاثة بهم فى الملمات والشدائد ، وإن ذلك لديك مستحب وارد وإن من كفَّر من يعبد الصالحين ، فهو مخطىء ضال وإنه لا يكفر ولا يشرك إلا من دعاهم استقلالا ، وزعم أنهم الفاعلون المدبرون ، وأما على وجه الجاه والشفاعة فذلك عندك ليس بشرك ولا كفر ، كل هذا ثبت لدينا قبل هذه الرسالة الأخيرة ، فلما وقفنا على ما فيها ، وتأملنا خافيها وباديها ، إذا هى على المذهب الذى حكينا ، والطريقة التى عرفنا ، وروينا ، بل فيها من الزيادة فى الكذب على الله وكتابه والكذب على أهل العلم فى نقل مذاهبهم وتحريف كلامهم ، ما لا يصدر عمن تصور الإسلام وعرفه ، وآمن بالله واليوم الآخر ، بل لا يصدر عمن له عقل يحسن أن يعيش به .

فنعوذ بالله من الجهاله والعمى والضلال عن سبل الإيمان والهدى ، ونسبة هذا إلى الإمام أحمد وإلى الشيخين كنسبة اليهودية والنصرانية إلى إبراهيم ، أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم وخواص أصحابه وأهل ملته.

نزلوا بمكة فى قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

والمؤمن يعرف هذا بمجرد إيمانه ولا يختص بمعرفته أولو العلم

وأما تبرئتك نفسك من الحلف بغير الله ، فمسألة الحلف لو سلمت لك البراءة منها دون ما أنت عليه بكثير ، فإن من استحب دعاء غير الله وألحد فى آياته ، وصد عن سبيله أعظم إثماً ، وأكبر جرماً ، ممن يحلف بغيره .

وأما ما زعم العراقى من أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فالمعروف فى عرفه هو دعاء الصالحين ، ونداؤهم بالحوائج ، وهذا عند الله ورسوله ، وعند أولى العلم من خلقه أكبر الكبائر ، على الإطلاق كما فى حديث ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » .

وهذا العراقى صرح بأنه يجوز نداؤهم أعنى نداء الأنبياء والصالحين بل والجمادات كما هو مشهور عنه لكن يسميه توسلا خالف المشركين فى التسمية لا فى الحقيقة ، فيدعو الغير ويرجوه فى كل مطلوب على وجه الجاه والتسبب ، وهذا حقيقة الشرك . والتنديد والمنكر فى عرفه هو النهى عن هذا وعن تكفير أهله، ولهذا صرح فى هذه الرسالة بأنه ينصح عن عدم تكفير هذا الضرب من الناس ويزعم أن لهم نيات صالحة ، ومقاصد صحيحة ، فظهر أنه رأس من دعا إلى المنكر ، وسعى فى عدم المعروف ، ومحو آثاره وأى معروف يبقى مع دعاء غير الله وأى منكر يزجر عنه وينهى لو كانوا يعلمون .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ .

وأصل الإسلام وقاعدته أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد إلاّ بما شرع .

وهذا وأمثاله من أجهل الناس بهذا الأصل ، وأضلهم عن هذا السبيل ، بل هم من أعظم الناس صداً عنه ورداً له ، وعيباً لأهله والمخلص الداعى إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له عندهم خارجى مبتدع كما صرح به فى رسالته الأولى ، وزعم أن هذا دين الخوارج وأن من كفر بدعاء غير الله فهو ممن يكفر أهل القبلة بالذنوب وأكثر هؤلاء لا يقتصرون على نسبة أهل التوحيد إلى الخوارج والبدعة بل يصرحون بتكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم والله المستعان .

قال العراقى : ولكنا لا نكفر الناس بهذه الأشياء لأنا اطلعنا على كتاب الله وسنة رسوله وكذا وكذا .

فيقال : أبعد الخلق عن كتاب الله وسنة رسوله هم أهل الاعتقادات الباطلة ؛ وأهل الغلو فى الأنبياء والأولياء الصالحين ، وهم أضل خلق الله عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، و إن ورثوا الكتاب ، ودرسوه فإن الوراثة والدراسة والاطلاع نوع ، والعلم به والإيمان

والعمل ومعرفة حقائقه ونصوصه نوع آخر. قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفى آذانهم وقراً الآية ﴾ . وقال : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً الآية ﴾ وفى الحديث الذى فى وصف الخوارج : « يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، هم شر قتلى تحت أديم السماء » .

فالعلم والكتاب إذا لم يخلص إلى القلوب فهو حجة على ابن آدم ، ويقال كتاب الله وسنة رسوله ، وأقوال أهل العلم صريحة متوافرة متظاهرة على تكفير من دعا غير الله وناداه بما لا يقدر عليه إلا الله ، قال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ الآية .

والقرآن كله دال على هذا المعنى مقرر له وإن اختلفت الطرق ، والأوجه فى بيانه والتنبيه عليه ، فكيف ينسب جواز دعاء غير الله وعدم تكفير فاعله إلى القرآن وإلى السنة ؟

وهل يقول هذا من يعرف ما جاءت به الرسل ويتصوره فضلاً عمن يؤمن به ؟ والمشركون الأولون يعترفون للرسل وأتباعهم أنهم دعاة إلى التوحيد ، وإخلاص العبادة والدعاء لله ، وإنما نازعوا فى

تصـديقهم ، وقبول ما جاءوا به .

وهذا الذى يزعم أنه اطلع على كتاب الله لم يعرف منه ما عرفه أولئك المشركون ، فالإسلام فى هـذه الأوقات أغرب منه فى أول ظهوره ، والدعوة إليه مع كثرة من يقرأ القرآن وينسخه ويطبع المصاحف ، وكتب العلم ، فسبحان من قلوب العباد بيده ، يصرفها بقدرته وحكمته ويدبرها بعلمه ومشيئته .

ومن العجائب والعجائب جمة   قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما   والمـاء فوق ظهورها محمول

وما أحسن ما قال مجاهد رحمه الله فى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال حتى يتركه لا يعقل .

وأما قوله إن الشيخ أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية لا يكفران أحداً من أهل القبلة ، فيقال لو عرف هذا من أهل القبلة فى هذا الموضع ومن المراد بهذه العبارة لما أوردها هنا ، محتجاً بها على دعاء غير الله ، وعدم تـكفير فاعله .

ومن أعرض عن كلام أهل العلم ، ورأى أن من صلى وقال « لا إله إلا الله » فهو من أهل القبلة ، وإن ظهر منه من الشرك والترك لدين الإسلام ما ظهر ، فقد نادى على نفسه بالجهالة والضلالة ،

وكشف عن حاصله من العلم والدين بهذه المقالة .

وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله قول القائل لا نكفر أهل الذنوب ، وهذا يزعم أنه على مذهب الإمام أحمد ، ومقصود من قالها إنما هو البراءة من مذهب الخوارج الذين يكفرون بمجرد الذنوب ، وهذا وضع كلامهم فى غير موضعه ، وأزال بهجته لأنه تأوله فى أهل الشرك ، ودعاء الصالحين ، فالتبس عليه الأمر ، ولم يعرف مراد من قال هذا من السلف .

وهذا الفهم الفاسد مردود بكتاب الله وسنة رسوله ، و بإجماع أهل العلم ، وقد عقد الفقهاء من أرباب المذاهب باباً مستقلا فى هذه المسألة ، وذكروا حكم المرتد من أهل القبلة ، وقرروا من المكفرات أشياء كثيرة دون ما نحن فيه ، وجزموا بأن العصمة بالتزام الإسلام ومبانيه ، ودعائمه العظام لا بمجرد القول ، والصلاة مع الإصرار على المنافى .

وهذا يعرفه صغار الطلبة ، وهو مذكور فى المختصرات من كتب الحنابلة وغيرهم . فهذا لم يعرف ما عرفه صبيان المدارس والمكاتب ، فالدعوى عريضة والعجز ظاهر .

وأعجب من هذا أنه يقول فى رسالته « إنى رأيت لمن يدعو

الصالحين والأولياء ويناديهم فى حاجاته أدلة صحيحة ونيات صالحة ، ما تخرج عن التوحيد ، لأن المقصود التسبب والوسائل لا الاستقلال » هذا كلامه .

ومن بلغت به الجهالة والعماية إلى هذه الغاية ، فقد استحكم على قلبه الضلال والفساد ، ولم يعرف مادعت إليه الرسل سائر الأمم والعباد .

ومن له أدنى صلة فى بالعلم ، والتفات إلى ما جاءت به الرسل ، يعرف أن المشركين من كل أمة فى كل قرن ما قصدوا من معبوداتهم ، وآلهتهم التى عبدوها مع الله إلا التسبب والتوسل والتشفع ليس إلا ، ولم يدعوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله ، ولا قاله أحد منهم سوى فرعون ، والذى حاج إبراهيم فى ربه .

وقد قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ فهم فى الباطن يعلمون أن ذلك لله وحده .

قال تعالى فى بيان قصدهم ومرادهم بدعاء غيره ، ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً ﴾ آلهة . وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من

دون الله شفعاء ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ .

فأخبر تعالى أنهم تعلقوا على آلهتهم ، ودعوهم مع الله للشفاعة والتقريب إلى الله بالجاه والمنزلة ، وأحبوهم مع الله محبة تأله وتعبد لنيل أغراضهم الفاسدة ، ولم يريدوا منهم تدبيراً ولا تأثيراً ، ولا شركة ولا استقلالا . يوضحه قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ إلى قوله ﴿ أفلا تتقون ﴾ . وقوله ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ إلى قوله ﴿ فأنى تسحرون ﴾ وقوله ﴿ أم من جعل الأرض قراراً ﴾ إلى قوله ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

فتأمل هذه الآيات وما فيها من الحجج والبينات ، تطلعك على جهل هذا العراقي وأمثاله ، وأنهم ماعرفوا شرك المشركين ، وما كانوا عليه من القصد والدين ، ولم يعرفوا ما كان عليه أنبياء الله وأتباعهم من توحيد رب العالمين ، وتأمل كيف استدل الله سبحانه وتعالى على توحيد إلٰهيته ، ووجوب عبادته وحده لا شريك له ، بما أقر به الخصم واعترف به من توحيد ربوبيته واستقلاله بالملك والخلق والتأثير والتدبير .

وهذه عادة القرآن دائماً يعرج على هذه الحجة لأنها من أكبر

الحجج وأوضحها وأدلها على المقصود .

فسبحان من جعل كلامه فى أعلى طبقات البلاغة والفصاحة والجلالة ، والفخامة والدلالة والظهور ، فأى شبهة بعد هذا تبقى للماحل المغرور .

واعلم أن دعاء الأموات والغائبين ليس بسبب لما يقصده المشرك ويريده ، بل هو سبب لنقيض قصده وحرمانه وهلاكه فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ لأنه فى الحقيقة إنما عبد الشيطان ودعاه وأطاعه فيما يأمر به ، ولذلك تتبرأ الملائكة والصالحون ومن دعاهم وصرف لهم شيئاً من العبادة ، وأيضاً فليس كل سبب يباح ، بل من الأسباب ما هو محرّم وما هو كفر ، كالسحر والتكهن .

والغبي يظن أن الدليل يسلم له إذا أراد السبب لا الاستقلال وعباد الكواكب وأصحاب النيرنجيات ومخاطبات النجوم ، يرون أنها أسباب ووسائل نافعة ، ويظنونها كالأسباب العادية ، وعباد القبور والأنفس المفارقة ، يرون أن تعلق قلب الزائر وروحه ، بروح المزور

سبب لنيل مقصوده ، وتحصيل نصيب مما يفيض على روح ذلك المزور ، كما ذكره الفارابى وغيره من عباد الكواكب والأنفس المفارقة .

وقد قال بعض السلف « ماعبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس » .

فصل

قال العراقى : ومن الأدلة على جواز دعاء الصالحين وندائهم ، ما ذكر الله عن نبيه سليمان وقوله لآصف وقد طلب منه مالا يقدر عليه إلا الله .

فنقول : سبحانك هذا بهتان عظيم ، ما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا .

وقصة آصف من أدلة التوحيد ، وآصف توسل إلى الله بتوحيده وإلهيته ، وكرر ذلك فى دعائه ، وقد قيل إنه يعرف الإسم الأعظم ، فهو طالب من الله ، راغب إليه سائل له ، وسليمان عليه السلام آمر ليس بسائل ولا طالب .

وفرق بين الأمر والمسألة . ومن لم يفرق بين الأمرين ، لم يدر حكم المسألتين ، فليرجع إلى وراء ، وليقتبس نوراً من كلام أئمة العلم والهدى .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : « لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك » . وهذا من جنس الأسباب العادية ، فإن الرجل إذا كان معروفاً بالصلاح وإجابة الدعاء فطلب منه الدعاء ، أو أمر به فدعا الله واستجيب له لا يكون هو الفاعل للاستجابة ، وليس المطلوب منه ما يختص بالله من الفعل وإنما يطلب منه ما يختص به من الدعاء والتضرع ، فالآيه من أدلة التوحيد ، وصرف الوجوه إلى الله ، وإقبال القلوب عليه ، فإن آصف توسل إلى الله بتوحيده وربوبيته وقصده وحده ولم يقصد سليمان ولا غيره مع أن سليمان أفضل منه لنبوته .

وفيها أن الأنبياء لا يسألون ولا يقصدون ، بل ربما صار حصول مقصودهم ، ونيل مطلوبهم على يد من هو دونهم من المؤمنين ، وإن أعظم الوسائل وأشرف المقاصد هو توحيد الله بعبادته ودعائه وحده لا شريك له كما فعل آصف ، وفيها براءة أولياء الله من الحول والقوة كما دلت عليه القصة ، فإنه توضأ وصلى ودعا فقال في دعائه يا ذا الجلال والإكرام ، قاله مجاهد .

وقال الزيادى « يا إلهنا وإله كل شيء ، إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ، ائتني بعرشها » . فأى شبهة تبقى مع هذا ، وأى حجة فيه على أن غير الله يدعى .

ثم أخذ العراقى فى هذيان وإسهاب حاصله أن السبب لا يفعل ، وأن الله هو الفاعل ، ومراده بهذا أن دعاء الأموات والغائبين من الأولياء والصالحين يجوز ويسوغ ، إذا اعتقد أن الله هو الفاعل .

وقد مر رد هذا وتقرير جهل قائله ومفارقته لما عليه أهل الإسلام ، وقد تقدم أن أصل الإسلام وقاعدته ، هى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإفراده بالقصد والطلب .

وأن توحيد الربوبية واعتقاد الفاعلية له تعالى لا يكفى فى السعادة والنجاة ، ولا يكون به الرجل مسلماً حتى يعبد الله وحده ، ويتبرأ مما سواه من الأنداد والآلهة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ، شهادة أن لا إله إلا الله » . وهذا ظاهر بحمد الله وإن خفى على خفافيش البصائر ، الذين لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، فهاموا من الجهل والضلال فى كل فج عميق ، مع انتسابهم إلى العلوم والدفاتر ، وتقدمهم فى المجالس والمحاضر .

لا عيب فى القوم من طول ومن قصر
جسم البغال وأحلام العصافير

فصل

قال العراقى : فعند أهل السنة أفعال العبد مخلوقة لله ، وعند المعتزلة أن المخلوق خالق لأفعاله ، ومع هذا فأهل السنة لا يكفرونهم ، انتهى .

قلت : يريد العراقى أن مسألة الأموات والغائبين ، ودعائهم فى الحوائج والشدائد مبنية على هذه المسألة ، وأن أهل السنة يثبتون ذلك لمن اعتقد أن الله خالق أفعال العباد ، وأن من أنكر دعاء الصالحين ونداءهم ، فهو من المعتزلة ؛ لأن إنكاره مبنى على اعتقاده أن العبد خالق لأفعال نفسه .

والجواب : أن يقال ، أما هذه المسألة أعنى ؛ خلق أفعال العبد ، فأهل السنة قائلون بها لدلالة الكتاب والسنة ، والأدلة العقلية والنقلية ، قال تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

وقد انعقد الإجماع على هذا ، ثم حدث قول القدرية النفاة فى أواخر عصر الصحابة ، وأول من اشتهر عنه ذلك غيلان القدرى ، ومعبد الجهنى .

فأما غيلان : فكان فى زمن هشام بن عبد الملك ، فناظره

الأوزاعى إمام أهل الشام فى زمانه ، وألزمه الحجة ، وحكم بكفره ، وقتله هشام .

ومعبد الجهنى : قتله الحجاج بن يوسف . وأكثر السلف يكفرونه بهذه المقالة ، كما هو معروف فى محله .

وقد قال الإمام أحمد : « ناظروهم بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن أنكروا كفروا » .

وقد حكى الإجماع على كفر من أنكر العلم شمس الدين ابن قيم الجوزية ، وناهيك به علماً وإطلاعاً ، فنسبته عدم التكفير إلى أهل السنة كذب جره عدم الحياء .

ثم أى حجة فى هذا على أن الأولياء والصالحين يدعون بما لا يقدر عليه إلا الله ، فمسألة خلق الأفعال لا تلازم بينها وبين دعاء الأولياء والصالحين بوجه ما ، وإنما أتى هذا من جهة ظنه أن من قال بأن الله يخلق أفعال العباد يباح له دعاء الصالحين . ومن قال إن العبد يخلق أفعال نفسه يحرم عليه ذلك ، هذا ظن الأحمق ، لم يفرق بين مذهب المعتزلة والقدرية ، ودين المشركين من العرب والصابئين .

ويذكر أن بعض الأغبياء شكا رجلاً إلى أمير من الأمراء ، فقال: إنه مرجىء خارجى رافضى ناصبى يسب معاوية بن الخطاب الذى قتل

على بن العاص . فقال له الوالى : « لا أدرى على أى شىء أحسدك على علمك بالمقالات ، أو على معرفتك بالأنساب » .

قال العراقى : وكان أحمد يصلى خلفهم وكل السلف .

والجواب : أن يقال ، سبحان الله ، ما أقبح الوقاحة والجرأة ، والتمادى فى الكذب على الله وعلى أولى العلم من خلقه ؛ ما صلى الإمام أحمد خلف قدرى قط ، بل أفتى بعض أهل الحديث بمجلسه أنه لا يصلى خلفهم ، فاستحسنه واستصوبه ، والمعروف من مذهبه أن الصلاة لا تصح خلف فاسق باعتقاده أو فعله .

وقد كذب هذا بانتسابه إليه ، والحكم عليه بالصلاة خلف القدرية ، وأكثر أهل السنة لا يرون الصلاة خلفهم ، كما ذكره صاحب كشف الغمة .

وبعض العلماء يقول : مسألة صلاة الجمعة والجماعة مبنية على مسألة القول بالتكفير وعدمه ، ويرى الصلاة خلف من لم يكفر ببدعته إذا احتج إلى ذلك ، فما حكاه هذا عن أهل السنة كذب لامرية فيه ، والصواب التفصيل عند بعضهم ، والمنع مطلقاً عند آخرين .

فصل

قال العراقى : وهذا من باب الكرامة ، وتكلم فى إثبات الكرامة ، وأنها تكون بعد الموت ، واستدل بقوله تعالى عن الملائكة : ﴿ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ . ومراد العراقى أن دعاء الصالحين والاستشفاع بهم ، وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله منهم ، من جنس الكرامة المثبتة التى أثبتها أهل السنة .

وهذه طامة عظيمة ، وغاية فى الجهالة والسفاهة ، بل هى من جنس احتجاج النصارى على دعاء المسيح وأمه ، وعبادتهما ظنوا أن ما حصل للمسيح ولأمه عليهما السلام من الكرامات والمعجزات ، يبيح لهم دعاءهما وعبادتهما ، وإذا خاطبت النصرانى ، سرد عليك من المعجزات والكرامات التى أعطيها المسيح واحتج بها على دعواه .

وعباد القبور يحتجون فى هذا الباب بما لم يثبت وما ثبت ، فأكثره دون ما أعطيه المسيح ، ومع ذلك فالاحتجاج به على دعائهم من جنس حجج النصارى ، لا يدل على المدعى ، بل غايته أن يدل على علو الدرجة ، وصدق الرسالة ، أو ثبوت الولاية إذا اقترن به عمل صالح ، وأما الاستدلال بذلك على أنه يدعى ويرجى ، ويشفع وينفع ، فهذا من دين النصارى والصابئة ، وعباد الأصنام ؛ وهذه

الشبهة هى التى أوقعت فى الشرك جمهور المشركين ، فإن أصل عبادة الأصنام هو التعلق على الصالحين ، وتصوير صورهم وتماثيلهم ، بل عباد الكواكب دعاهم إلى عبادتها ما أودع الله فيها من الحكم والمنافع التى ظهرت آثارها فى هذا العالم ، كما يعرفه من عرف مذاهب القوم .

وطرد الدليل الذى استدل به العراقى : أن يقال بدعاء كل ذى كرامة ومزية ، إذا اعتقد أن الفاعل هو الله ، ولا يتوجه الإنكار على النصارى فى قولهم : يا عيسى افعل كذا ، يا روح القدس اعطنى كذا ، يا والدة المسيح اشفعى لنا إلى الإله ، لأنه من أولى العزم ، ومن أكابر أهل الكرامات .

والمسلم إذا تصور هذا ظهر له ما فيه من الجهل والضلال ، بمجرد الفطرة ، ومعرفة الإسلام ، وأما من رزق الفهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ووفق للاستدلال بآيات الله ومخلوقاته ، التى نصبها شاهدة ودالة على توحيده فى ربوبيته وإلهيته ، فذلك أكمل إيمانا ، وأتم علماً وإيقاناً ، يرى كفر من تعلق على غير الله ، ودعاه فيما يختص بالله من أوضح الواضحات ، وأبين البينات .

قال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى ، وهو

يحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير ﴾ . استدل بعموم قدرته وإيجاده وإحيائه الموتى على وجوب توليه بعبادته وحده لا شريك له .

والقرآن والسنة يدلان على هذا ، ويقررانه بأنواع الدلالات ، وألطف التقريرات .

والآية التي استدل بها ليس فيها ما يدل على دعواه ، بل فيها ما يبطلها ويدحضها ، فإن أول الآية نص على وجوب التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة والاستقامة على ذلك بالتزام حقوقه وواجباته ، وتنزل الملائكة ومخاطبتهم للمؤمن بهذا الخطاب ، وتوليتهم له لا يدل على أنه يفعل ويشفع ، وإنما يدل على كرامته ، وعلو درجته ، ونيل مشتهاه ومدعاه فى دار الكرامة . فأين فى هذا ما يدل على أنه يدعى فى حياته ، أو بعد مماته ، وفى الحديث : « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، وفى رواية : « بغير علم » .

وهذا الجاهل يتخبط فى الاستدلال بآيات الله ، ويحملها على غير محملها ، ويتأولها على غير تأويلها ، بل على نقيضه وضده ، فسبحان من طبع على قلبه .

وقد استدل بعض من يدعى العلم على مسألة تصرف الأولياء ، وأنهم يدعون ، بقوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

فقال بعض عوام المسلمين : إن كانت القراءة يرزقون ـ بفتح الياء ـ فذاك متجه ، و إلا فالآية حجة عليك .

قال فى الفتاوى البزازية من كتب الحنفية : « قال علماؤنا : من قال أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر » انتهى . فإن أراد علماء الشريعة فهو حكاية للإجماع ، والإجماع على هذا يعلم بالضرورة من دين الإسلام ، وهذا أحد الطرق التى يعرف بها الإجماع .

وقال الشيخ صنع الله الحلبى الحنفى فى رسالته : فى الرد على من زعم أن الأولياء يدعون و يتصرفون على أن ذلك كرامة .

قال : « وهذا كلام فيه تفريط و إفراط ، بل فيه الهلاك الأبدى ، والعذاب السرمدى ، لما فيه من روائح الشرك المحقق ، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ، ومخالفة عقائد الأئمة ، وما اجتمعت عليه الأمة » .

والمقصود أنه حكى إجماع الأمة على كفر من زعم ذلك .

فصل

واستدل العراقى على دعاء الصالحين وندائهم الحوائج بقوله تعالى : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ وذكر عن البيضاوى أنها أرواح الموتى .

الجواب : أن يقال قد حكى البيضاوى أقوالا على هذه الآية وقدم أنها الملائكة ، وحكى أنها النجوم ، وحكى أنها خيل الغزاة ، وحكى أنها أنفس الغزاة .

وعلى زعم هذا وطرد دليله كل ما ذكر يدعى مع الله حتى خيل الغزاة والبيضاوى لا يقول بدعاء أحد مع الله بل ذكر فى تفسيره مواضع يعز استقصاؤها فى المنع عن ذلك وتحريمه .

ثم هذا القول الذى قاله العراقى رجوع إلى عبادة الملائكة والنجوم ، والأنفس المفارقة . وهذا حقيقة دين الصابئة ، أوقع العراقى فيه ظنه أن العبادة لا تكون عبادة وشركا إلا إذا اعتقد التأثير من دون الله ، وهذا الشرط هو الذى أوقعه فيما وقع فيه من تجويز عبادة الملائكة والنجوم ، والأنفس المفارقة .

وهذه[1] المسألة غلط فيها كثير من الضالين ، مع أن الله تعالى

---

(١) أقول قد ذكر العلامة الوالد عليه الرحمة فى تفسيره « روح المعانى » كلاماً مستوفى على هذه الآية الكريمة فى سورة النازعات وقد أطنب فأطاب كما هى عادته تغمده الله برحمته ، ومن جملتها أنه إقسام من الله تعالى بطوائف من ملائكة الموت ، وقيل غير ذلك إلى أن قال ، وفى حمل المدبرات على النجوم لإبهام صحة ما يزعمه أهل الأحكام وجهلة المنجمين ، وهو باطل عقلاً ونقلاً كما أوضحنا ذلك فيما تقدم وكذا فى حملها على النفوس الفاضلة المفارقة ، لإبهام صحة ما يزعمه كثير من سخفة العقول ، من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض ،=

وضحها فى كتابه توضيحاً كافياً شافياً . وقد تقدم بعض ذلك قريباً .
والشرك جعل شريك لله تعالى فيما يستحقه ويختص به من العبادة الباطنة والظاهرة ، كالحب والخضوع ، والتعظيم والخوف ، والرجاء والإنابة ، والتوكل والنسك ، والطاعة ، ونحو ذلك من العبادات .

= وإنقاذ الغريق ، والنصر على الأعداء ، وغير ذلك مما يكون فى عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوض إليهم ذلك .

ومنهم من خص ذلك بخمسة من الأولياء والكل جهل وإن كان الثانى أشد جهلاً إلى آخر ما قال مما ليس عنه غنى لأهل الكمال .

هذا واعلم أن هذا الناقل لكلام البيضاوى المموه أدلته بالأباطيل شنشنته معروفة عند علماء العراق وتأويلاته الفاسدة غير مسلمة بالاتفاق فعليك بطريقة السلف وأعرض عمن ابتدع وتخلف ، وأعرض عن ذكر الله وتكلف وتصلف .

الفقير
نعمان ألوسى زاده

قال العلامة مفتى الأنام فى مدينة السلام ، أبو الثناء شهاب الدين الألوسى تغمده الله تعالى برحمته ، فى تفسيره روح المعانى فى باب الإشارة ما نصه : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر » الآية ، فيه إشارة إلى ذم المتصوفة الذين إذا سمعوا الآيات الرادة عليهم ظهر عليهم التجهم والبسور ، وهم فى زماننا كثيرون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفى قوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً إلخ » ، إشارة إلى ذم الغالين فى أولياء الله تعالى حيث يستغيثون بهم فى الشدة ؛ غافلين عن الله تعالى وينذرون لهم النذور ، والعقلاء منهم يقولون إنهم وسائلنا إلى الله تعالى ، وإنما ننذر لله عز وجل ونجعل ثوابه للولى . =

فمتى أشرك مع الله غيره فى شىء من ذلك فهو مشرك بربه قد عدل به سواه وجعل له نداً من خلقه ، ولا يشترط فى ذلك أن يعتقد له شركة فى الربوبية أو استقلالا بشىء منها .

والعجب كل العجب أن مثل هؤلاء يقرأون كتاب الله ، ويتعبدون بتلاوته ، وربما عرفوا شيئاً من قواعد العربية وهم فى هذا الباب من أضل خلق الله ، وأبعدهم عن فهم وحيه وتنزيله .

= ولا يخفى أنهم فى دعواهم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم ، أو رد غائبهم ، أو نحو ذلك ، والظاهر من حالهم الطلب ويرشدنا إلى ذلك أنه لو قيل انذروا لله تعالى واجعلوا ثوابه لوالديكم ، فإنهم أحوج من أولئك الأولياء ، لم يفعلوا ، ورأيت كثيراً منهم يسجد على أعتاب حجر قبور الأولياء ، ومنهم من يثبت التصرف لهم جميعاً فى قبورهم ، لكنهم يتفاوتون فيه حسب تفاوت مراتبهم ، والعلماء منهم يحصرون التصرف فى القبور فى أربعة أو خمسة ، وإذا طولبوا بالدليل قالوا ثبت ذلك بالكشف ، قاتلهم الله تعالى ، ما أجهلهم ! وأكثر افتراءهم .

ومنهم من يزعم أنهم يخرجون من القبور ويتشكلون بأشكال مختلفة ، وعلماؤهم يقولون إنما تظهر أرواحهم متشكلة ، وتطوف حيث شاءت ، وربما تشكلت بصورة أسد أو غزال ، أو نحوه وكل ذلك باطل لا أصل له ، فى الكتاب والسنة وكلام سلف الأمة ، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينهم وصاروا ضحكة لأهل الأديان المنسوخة، من اليهود والنصارى ، وكذا لأهل النحل والدهرية نسأل الله تعالى العفو والعافية انتهى .

الفقير
أحمد شهاب الدين

ومن الأسباب المانعة عن فهم كتاب الله أنهم ظنوا أن ما حكى الله عن المشركين وما حكم عليهم ووصفهم به ، خاص بقوم مضوا ، وأناس سلفوا وانقرضوا ، لم يعقبوا وارثاً .

وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين ، هذه نزلت في عباد الأصنام ، هذه في النصارى ، هذه في الصابئة ، فيظن الغِرّ أن ذلك مختص بهم ، وأن الحكم لا يتعداهم ، وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد و بين فهم القرآن والسنة .

ثم اعلم أن قول البيضاوى هنا قول لا يلتفت إليه ولا يعول في الدليل عليه ، لأنه صدر عمن لا يرضى ولا يؤتم به في هذا الشأن ، ولا يقتدى ، ولم يقله أحد من أئمة التفسير والهدى ، بل قد صرحوا ، بخلافه كما يعرفه أولو الأحلام والنهى ، ونبهوا على أن أصل الشرك هو سؤال أرواح الموتى .

والبيضاوى وأمثاله إنما يؤخذ عنهم ما شهدت له الأدلة الشرعية ، وجرى على القوانين المرضية التي يتلقاها أهل العلم والإيمان ، من أحكام السنة والقرآن .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : « ذهاب الإسلام من ثلاثة : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وحكم الأئمة المضلين » .

هذا لو سلمنا ثبوت العلم لمن يحكى مثل هذه الأقوال ، و إلا فأين العنقاء لتطلب ، وأين السمندل ليجلب ؟

وأهل التحقيق من المفسرين على أن المراد بهذه الآية هم الملائكة ، فإسناد التدبير إليهم كإسناد النزع والنشط والتقسيم والزجر كما فى قوله : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ وقوله : ﴿ فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ﴾ . وليس فى هذه الآيات الكريمات ما يدل على دعاء الملائكة وعبادتهم ، فإنهم رسل مأمورون مدبرون ، كما أن إبلاغ الرسالة من الرسول البشرى لا يدل على دعائه ، ولا يقتضيه ، فكذلك الملائكة ، لأنهم رسل بالأوامر الكونية والشرعية ، والقدرة والتدبير وتسخير المخلوقات كل ذلك لله وحده . وهو من أدلة توحيده و إلهيته ، وصرف الوجوه إليه والإعراض عما سواه .

قال تعالى فى حق الملائكة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون إلى قوله كذلك نجزى الظالمين ﴾ . وقال فى شأن جبريل وغيره من الملائكة ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾ .

فتأمل ما فى هذا القول من كمال العبودية ، ومتابعة الأمر والبراءة من الملكة والحول والقوة ، والاعتراف له تعالى بذلك .

فاستدل بعموم الربوبية . ثم قال تعالى : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ ثناء عليه تعالى بإثبات العلم ونفى ما يضاده أو ينافى كماله . قال تعالى فى حق المسيح : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ﴾ الآية .

والمقصود أن تسخير الملائكة وتدبيرها وإرسالها من أدلة إلٰهيته تعالى ، واستحقاقه لأن يعبد وحده لا شريك له .

ومن العجب أن هذا العراقى زعم أن للأرواح تدبيراً وتأثيراً فى العالم مستدلاً بعبارة رآها فى كتاب الروح ، وهذا غلط فاحش ، وخطأ واضح ، فإن ما ذكره العلامة ابن القيم ليس فيه أنها تدبر ، وتتصرف وتجيب من دعاها ، وليس فيها إلا مجرد الحكاية أن روح النبى صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه قد رآها بعض الناس عند القتال ، وأنها هزمت أهل الشرك ، وليس فيه أنها تدبر وتتصرف .

وهذه الرؤيا والقضية الجزئية لا دلالة فيها على ما زعمه العراقى بوجه من الوجوه . وأبلغ من هذا قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ . فانظر هذه الآية الكريمة وما فيها من قطع التعلق والالتفات إلى غير الله مع أن المدد بالملائكة وقتالهم مشهود محسوس

متواتر ، ولو قال إنسان بجواز دعاء الملائكة وطلب ذلك منهم والاستغاثة بهم عند الشدائد والحرب ؛ لكان ذلك كفراً ورجوعاً إلى عبادة الملائكة والأنفس المفارقة .

ومن نظر فى كلام هذا الرجل عرف أنه أجنبي عن العلم ، لم يعرف ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ، وكيف كان الشرك فى الأمم . وإلا فأى تلازم بين ما ذكره ، وما أخبر الله به عن مدده بالملائكة ، وبين دعائهم والاستغاثة بهم ، والاستعانة والإنابة فى كشف الشدائد والمهمات .

والرجل وجد مادة وكتباً شتت فهمه ، وحيرت عقله ، أراد الاستغناء بها فلم تزده إلا عمى وجهلا ، فأضاف إلى ذلك الجرأة فى الكذب على الله وعلى رسله وعلى أولى العلم من خلقه ، كما كذب على الشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وزعم أنهما قالا : الأرواح تدبر وتتصرف بعد الموت ، والشيخ رحمه الله نص على أن القول بمثل هذا من أقوال الفلا. فة والصابئة .

قال رحمه الله : « من قال إن أرواح الموتى تجيب من دعاها هذا يشبه بقول من يقول : الأرواح بعد المفارقة تجتمع هى والأرواح الزائرة فيقوى تأثيرها . وهذه المعانى ذكرها طائفة من الفلاسفة ومن أخذ

عنهم كابن سينا وأبى حامد وغيرهما . وهذه الأحوال هى من أصول الشرك ، وعبادة الأصنام وهى من المقاييس التى قال بعض السلف ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس » . وقال أيضاً رحمه الله فى الكلام على رؤساء المتكلمين « وقد رأيت فى مصنفاتهم فى عبادة الملائكة ، وعبادة الأنفس المفارقة أنفس الملائكة وغيرهم ماهو أصل الشرك » . وقال العلامة ابن القيم رحمه الله فى مدارجه : « ومن أنواعه – أى الشرك الأكبر – طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلا عمن استغاث به أو سأله أن يشفع به عند الله » .

فصـــــل

قال العراقى فى استدلاله : على أن أرواح الصالحين تدعى وتدبر ومن الآيات التى تدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ . وقال المفسرون : منهم البغوى رأى يعقوب عاضاً على أنملته يقول إياك وإياها ، فلم يفعل ، فكان يوسف فى مصر ويعقوب فى الشام . فهذا نوع من الكرامة وهى سبب والقدرة لله » .

قلت : يريد العراقى أن مثل هذا يدل على جواز دعاء الصالحين وندائهم بالحوائج ، فى الغيبة و بعد الممات ، لأن هذا كرامة ، والكرامة يدعى صاحبها وينادى .

والجواب أن يقال : عبادة[1] الله وحده لا شريك له و إفراده بالدعاء والطلب فيما لا يقدر عليه إلا هو ، دلت على وجوبها الكتب السماوية ، واتفقت عليها الدعوة الرسالية ، وهى أصل الدين وقاعدته ، لا يعتريها نسخ ولا تخصيص .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى

---

(١) قال ابن العربى فى الفتوحات المكية أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، يا موسى لا تجعل غيرى موضع حاجتك ، وسلنى حتى الملح تلقيه فى عجينتك ، هذا تعليم من الله تعالى لنبيه عليه السلام . وقد رأيته سبحانه فى النوم فقال وكلنى فى أمورك ، فوكلته فما رأيت الاعصمة محضة ، لله الحمد على ذلك ويكفى فى التعليم قوله سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » أى لا نعبد سواك ولا نستعين بمخلوق . وحديث ابن عباس : « وإذا استعنت فاستعن بالله » وقوله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون » الآية وقوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » انتهى .
وقال الإمام زين العابدين : السجاد : كيف يسأل محتاج محتاجاً » وقال الإمام الغزالى : « المؤمن لا يجعل بينه وبين الله تعالى وسائط فى الطلب » قال تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

الفقير أحمد

تؤفكون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ، أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

فتأمل هذه الآيات ونظائرها وانظر ما دلت عليه من اختصاصه تعالى بالخلق والرزق اللذين هما أصل المخلوقات وقوامها ، وانظر كيف استدل بهذا على وجوب عبادته وطاعته والإيمان به ، وهل يعارض هذا الأصل بمثل هذه الأوهام الضالة من شم رائحة العلم ، ودرى ما الناس فيه من أمر دينهم .

فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة ... وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

هذا لو سلم أن الكرامات سبب ، وأن هذا المثال فيه إثبات الكرامة ، فكيف والأمر بخلاف ذلك بإجماع أهل العلم ، والمقدمتان كاذبتان لأن الكرامة فعل الله تعالى لا فعل للولى فيها ، ولا قدرة له عليها ولا تأثير .

وكل من يذكر تعريف الكرامة وحدها يقول : هى خرق الله العادة لوليه لحكمة ومصلحة تعود عليه ، أو على غيره ، وعلى هذا التعريف لا فعل للولى فيها ولا إرادة ، فمن أين يؤخذ أنها سبب

يقتضى دعاء من قامت به ، أو فعلت له ، ومن أى وجه دلت الكرامة على هذا ، وأفضل الناس الرسل والملائكة من أفضل خلق الله ، ولهم من المعجزات والكرامات والمقامات ما ليس لغيرهم .

قد جاء عيسى ابن مريم بما هو من أفضل المعجزات والكرامات ، يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله و يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، و ينبئهم من الغيب ما يأكلون وما يدخرون .

وقد أنكر تعالى على من قصده ودعاه فى حاجاته وملماته ، وأخبر أن فاعل ذلك كافر بر به ، ضال بعبادة غيره .

قال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ الآية . والأرباب : هم المعبودون المدعوون ، وسيأتى تحقيق هذا .

وقال تعالى فيمن عبدوا المسيح : ﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ﴾ .

وسيأتيك أن الدعاء والنداء بما لا يقدر عليه إلا الله داخل فى مسمى العبادة فتنبه .

فأخبر تعالى عن المسيح أنه لا يملك لمن دعاه نفعاً ولا ضراً ، وإن قلّ ، كما يفيده التنكير وأبطل عبادته وأنكرها أشد الإنكار ،

ومعجزاته أوضح من الشمس وسط النهار .

وقد تقدم أن هـذه الشبهة هى التى تعلق بها النصارى فى دعائه ودعاء أمه .

ثم اعلم أن الآية ليس فيها ما يدل على كرامة يعقوب عليه السلام إلا حفظه فى عقبه ، وصيانة ولده ، فإن الله يحفظ الرجل الصالح فى نفسه وأهله وولده ، كما فى حديث ابن عباس « احفظ الله يحفظك » وليس ذلك من جهة المثال وتخصيصه ، فإن هذا لا يفيد الكرامة ولا يفهمها .

وقد تمثل جبريل فى صورة دحية الكلبى وكثيراً ما يتمثل الملك فى صورة البشر .

والذى رآه يوسف هو المثال لا نفس يعقوب وذاته كما فهمه الغبى، فإن هذا لا يدل عليه كلامهم أصلا ، وكرامات يعقوب عليه السلام أجل من ذلك وأعظم .

وقد يمثل للإنسان من يحب ويأنس به أو من يجله ويهابه لمصلحة تعود عليه ، لا على نفس صاحب المثال ، ولذلك نظائر وأشباه فى اليقظة والمنام ، يعرفها أولوا العلم والأفهام .

تنبيـــــه

ليست الكرامة من لوازم المنزلة وعلو الدرجة ، مشى قوم فوق

البحار ، ومات عطشاً من هو أفضل منهم وأقوى إيماناً .

وقد كثرت فى القرن الثانى والثالث وفى القرن الأول من هو أفضل وأجل ممن وقعت له هذه الخوارق ، وبسط هذا له محل .

والقصد إبطال كلام هذا الضال ، ويقال له أكثر المفسرين على غير هذا ، فمنهم من قال إن همّ يوسف من جنس الخطرات ، والواردات التى لا تستقر وليست بعزم فتركها .

والإعراض عنها حسنة ، كما دل عليه حديث « إذا همّ العبد بالسيئة فلم يفعلها كتبت له حسنة » .

ومنهم من قال البرهان المشار إليه هو قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ رأى الآية مكتوبة فى السقف ، ومنهم من قال رأى ثلاث آيات هى البرهان .

ومنهم من قال لم يهم يوسف بسوء لوجوب عصمته حتى قبل النبوة ، وقوله ﴿ همّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ معلق على عدم الرؤية وقد ثبتت فلا همّ نقول ملك زيد لولا عمر .

وهذا معنى ما قال بعضهم فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : لولا أن رأى برهان ربه همّ بها .

وهذا يذهب إليه من يقول بعصمة الأنبياء قبل النبوة .

وهو الراجح عند من اعتمد أقوالهم هذا العراقى فيما وصل إلينا فى علم الغيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا خالفهم ظناً منه أن إثبات الـكرامة يقتضى إباحة الدعاء مع الله ، قال بعض السلف أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى ، أى مذهب وافق هواك تمذهبت به ، ومن العجب أنه يكرر فى هذه الرسالة ، سلونى سلونى إن أشكل عليـكم شىء ، وعندى من النسخ ، وعندى كذا وكذا ، و يطرى نفسه أطراء لا يصدر عمن له دين وعقل أو دراية بشىء من الآداب والنقل ، حتى أنشد فى مدح نفسه قول الشاعر :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وما أحسن ما قيل :

إنى سألت ولـكن لم أجد أحداً ثنا عليك ومدح النفس تضليل

ومثل هذا لا يحسن ممن له علم وفضل ، أو أدب ينتفع به وعقل ، فـكيف بمن لم يعلم حقيقة الإســلام . ولم يعرف منه ما عرفه آحاد العوام .

وقد اعترض بعض الجهال على شيخ الإسلام فى بعض تقاريره فأخطأ الإصابة ولم يتأدب بحضرة تلك العصابة .

وقال له الشيخ لا أدب ولا فضيلة وأنَّى لمثل هذا بالفضل والأدب ، وقد عدم العلم الذى هو أصل الفضائل والرتب .

فقر الجهول بلا علم ولا أدب فقر الحمار بلا رأس ولا رسن

وهذه الدعوى الـكاذبة يمكن كل أحد أن يدعيها ، ولـكن هيهات هيهات قد حيل بين النفوس الجاهلة و بين أمانيها ، لقول أصدق الورى ، ومن لا ينطق عن الهوى ، « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء قوم وأموالهم » الحديث .

والله يعلم أنى ما رأيت لهذا إصابة قط فيما يدعيه و ينفرد به ، حتى أنه قال فى بدء رسالته وخطبته فى وصف الأرواح ، فما تعارف منها فى الأزل ائتلف فزاد فى الحديث قوله فى الأزل ، وهى ز يادة تدل على جهله وكثافة فهمه ، فإن الأزل لا وجود للأرواح فيه فضلا عن أن تتعارف لأنه اسم لما قبل إيجاد المخلوقات .

فصـــــل

قال : وقد أجمع الحنابلة وغيرهم على طلب الشفاعة من الرسول بعد موته عند ز يارته .

والجواب : أن يقال هذه دعوى عريضة كبيرة ، لا تصدر إلا عن

اطلاع كلى ، و إحاطة تامة بأقوال أهل العلم ، أو عن وقاحة كلية وتهور فى الـكذب ، و إيغال فى الافتراء .

ومن المعلوم ضرورة ، عند من نظر فى كلام هذا من أهل العلم ، إنه ليس من القسم الأول ، بل هو ممن يجهل الضرور يات الإسلامية والبديهيات الإيمانية اليقينية ، مما لا يخفى على عامة المسلمين فـكيف له بمعرفة الإجماع فى هذه المسألة .

والمدعى يطالب بتصحيح دعواه . ولـكن نتنزل مع هذا ونـكتفى منه بتصحيح ذلك عن واحد فقط ممن يحتج به من أئمة العلم والفتوى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من بعدهم من التابعين وتابعى التابعين أو الأئمة الأر بعة أو أصحاب الوجوه والترجيحات فى مذاهبهم .

وأما من لا يحتج به من الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون ، و يفعلون مالا يؤمرون ، فهؤلاء ليسوا بحجة ، ولا يرجع إليهم بالاتفاق والآثار ، والأحاديث دلت على عيبهم وذمهم بما أحدثوه فى دين الله من الأقوال والأفعال كما فى حديث العر باض بن سار ية وغيره من الأحاديث .

وما علمت أحداً من أهل العلم وأئمة الفتوى ، قال : هذا لا من الصحابة ولا من غيرهم .

بل حكى الشيخ الإمام أحمد بن عبد الحليم الإجماع على المنع من دعائه صلى الله عليه وسلم ، والطلب منه وقرر أن هذا من شعب الشرك الظاهرة ، وسيأتيك بسط كلامه ، وذكر الحنابلة كصاحب الفروع والإقناع وغيرهم حتى أصحاب المختصرات ، أن المُسَلِّم عند القبر لا يستقبله عند الدعاء ، ولا يدعو الله عنده ، وهذا منهم صيانة للتوحيد .

وأبو حنيفة قال لا يستقبله عند السلام عليه صلى الله عليه وسلم ، بل يستقبل القبلة حكاه شيخ الإسلام ، وقد كره مالك للرجل أن يدعو عند القبر الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، وذكر أنه يستقبل القبلة عند الدعاء كما ذكره فى المبسوط وغيره من كتب المالكية .

وفى منسك الإمام أحمد مثل هذا ، بل كرهوا للرجل من أهل المدينة أن يأتى القبر الشريف كلما دخل المسجد لأنه محدث لم يفعله أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال مالك ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصْلَحَ أولَها .

وأما مَنْ قدم من سفر أو أراده من أهل المدينة فرخصوا له فى إتيان القبر الشريف للسلام لأن ابن عمر كان يفعله .

قال ابن أخيه عبيد الله بن عمر بن عاصم لم يفعله أحد من أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم . إلا ابن عمر .

وعبيد الله المصغر من أفضل آل عمر ، ومن أعيان وقته ثقة وزهداً وعلماً وأما دعاؤه وطلب الشفاعة منه صلى الله عليه وسلم بعد موته فهم مجمعون على المنع منه .

ولم ينقل عن أحد من أئمة المسلمين لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ما يقتضى الجواز والإباحة . قال شيخ الإسلام أبو العباس رحمه الله : « والطلب من النبى صلى الله عليه وسلم بعد موته وفى مغيبة ليس مشروعاً قط ، ولكن كثيراً من الناس يدعو الموتى والغائبين من الشيوخ وغيرهم فتتمثل له الشياطين وتقضى بعض مآربه لتضله عن سبيل الله كما تفعل الشياطين بعباد الأصنام وعباد الشمس والقمر ، تخاطبهم وتتراءى لهم وهذا كثير يوجد فى زماننا وغير زماننا » انتهى .

وقال الشيخ رحمة الله : « وكان الصحابة والتابعون لما كانت الحجرة النبوية منفصلة عن المسجد إلى زمن الوليد بن عبد الملك لا يدخل أحد إليها لا لصلاة هناك ولا لتمسح بالقبر ، ولا دعاء هناك بل هذا جميعاً إنما يفعل بالمسجد . وكان السلف إذا سلموا على النبى صلى الله عليه وسلم وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلى القبلة ولم يستقبلوا القبر وأما وقوف المُسَلِّم عليه ، فقال أبو حنيفة ليستقبلوا القبلة أيضاً ولا يستقبلوا

القبر، وقال أكثر الأئمة بل ليستقبلوا القبر عند السلام عليه خاصة ولم يقل أحد من الأئمة أنه يستقبل القبر عند الدعاء : أى الدعاء الذى يقصده بنفسه إلا فى حكاية مكذوبة تروى عن مالك، ومذهبه بخلافها، واتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقبله. وهذا كله محافظة على التوحيد فإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد . قالت طائفة من السلف فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ﴾ الآية هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قوم نوح . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم . وقد ذكر بعض هذا البخارى فى صحيحه لما ذكر قول ابن عباس وذكره ابن جرير وغيره عن واحد من السلف وذكره وثيمة وغيره فى قصص الأنبياء من عدة طرق » انتهى

وقال الحافظ محمد بن عبد الهادى من أكابر الحنابلة وعلمائهم : « والسلف كلهم متفقون على أن الزائر لا يسأله شيئاً يعنى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يطلب منه ما يطلب منه فى حياته ، و يطلب منه يوم القيامة لا شفاعة ولا استغفاراً » . وقال أيضاً : « والحكاية التى تنسب إلى مالك مع أبى جعفر المنصور كذبٌ عند أهل المعرفة بالنقل والتصحيح » انتهى .

ومذهب مالك رحمه الله المعروف عند أصحابه يخالف هذه الحكاية المكذوبة ويردها .

قال القاضي عياض قال مالك في المبسوط : « لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ولكن يسلم ويمضي » . وقال القاضي إسماعيل في المبسوط . قال مالك : « لا أرى أن يقف الرجل عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو . ولكن يسلم على النبي وعلى أبي بكر وعمر ثم يمضي » .

ولما نقل ابن وهب عن مالك أنه يدعو النبي صلى الله عليه وسلم عند القبر حمله أكابر أصحابه على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . وابن عبد البر يقول لفظاً لرواية على ماذكره ابن القاسم والقعنبي وغيرهما يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم هذا لفظ مالك .

وقال بعض المالكية المراد بالدعاء السلام بدليل أنه ذكر في رواية ابن وهب نفسه يقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله .

وقد تقدم مذهب الحنابلة وأبي حنيفة وإذا كان هذا ممنوعاً مع أنه دعاء الله فما ظنك بدعاء الرسول نفسه وطلب الشفاعة منه صلى الله عليه وسلم .

فالأول منع منه لأنه وسيلة وذريعة إلى هذا المحذور الذي هو

سؤال غير الله وقصده فى الحاجات ولم يكن فى عهد السلف شيء من هذا . وإنما حدث أوائله ومباديه بعد القرون المفضله ، وأنكرها أهل العلم والإيمان محافظة منهم على السنة ، وحماية لجانب التوحيد وطاعة لله ورسوله وسداً لذرائع الشرك ووسائله .

وقد روى الضيا فى المختارة عن الحسن بن الحسن أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فنهاه عن ذلك . قال : « ألا أخبركم بحديث سمعته من أبى عن جدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تتخذوا قبرى عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث ما كنتم » . وروى أيضاً عن على ابن الحسين زين العابدين وهذان الإمامان هما أفضل أهل البيت فى زمانهما . وقد روى هذا الحديث عن أبى هريرة فى سنن أبى داود بلفظ « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ولا قبرى عيداً الحديث » .

فانظر هذه السنه المأخوذة عن أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً وداراً . وتأمل ما دلت عليه من الحكم والفوائد من ذلك نهيه عن اتخاذ قبره عيداً والعيد ما يعتاد مجيئه فى وقت مخصوص . وتأمل حكمة ذلك ومقصوده وما فهمه السلف من النهى عن التردد إلى القبر الشريف ، كلما دخل المسجد وفيه : أن الصلاة والسلام يبلغه ، وإن بعد المُسَلِّم وفيه أن الذى يجب له صلى الله عليه وسلم من التوقير

والتكريم والصلاة والتسليم مطلوب فى كل مكان ، وعلى أى حال . وذلك أكمل وأعم ممن يعتاد ذلك عند مجيئه إلى القبر أو يزيد بالغلو والإطراء . فإذا بعد عنه فهو من أشد الناس معصية وجفاء وفيه حماية أصل الدين وقاعدته بصرف الوجوه إلى الله وإنابة القلوب إليه واعتمادها عليه .

ورعاية هذا الأصل من أهم أصول الشريعة ومدارك الأحكام وسؤال المخلوق وصرف الوجه إليه بالمسألة والطلب فى الأمور الكلية العامة يعود على هذا الأصل بالهدم والقلع .

فمن عرف هذا حق المعرفة ونظر فى أدلته وأصوله تبين له علم السلف ودقة نظرهم وحسن سياستهم للناس بما يصلح دينهم ودنياهم . وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد . وذكر أبو بكر الإمام الأثرم وغيره من أئمة الحنابلة أن العلة فى ذلك كون الصلاة ونحوها من العبادات عند القبور وسيلة وذريعة إلى تعظيم أربابها بما لم يشرع من الغلو والدعاء وعبادتها مع الله . فكيف والحالة هذه يقال بجواز طلب الشفاعة من الرسول صلى الله عليه وسلم أو أن ذلك مجمع عليه كما زعمه هذا المفترى الجاهل بالله تعالى ومعرفة حقه وحق رسله فنعوذ بالله من الخذلان .

والعلم يدخل كل قلب موفق من غير بواب ولا استئذان
ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالخذلان

فصل

قال العراقى : والمقصود أن تكفير الناس بمجرد فهم واحد من كتاب الله لم يفهمه النبي صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ وهذه الآية صحيحة ولكن هذا الفهم باطل لأن الدعاء المذكور هو السجود على أنها أرباب وهى الأصنام وهم كانوا يعبدونها على أنها أرباب لهم ، وهى أخشاب وأحجار لا تملك شيئاً ، فالذى يستدل بهذه الآية يقال له أين مذكور تفسير هذه الآية ؟ إن المراد بها الأنبياء والشهداء والأولياء الذين يناديهم المسلم نداء لا عبادة ، فإن هذا لم يذكر قط فى تفسير ولا فى حديث ، ولا فى أقوال السلف . نعم ذكر الشيخ تقى الدين وقال إنه من باب الزجر والتغليظ والإشارة ، لا من باب الحكم على المسلم بالردة فله أكثر من مائة عبارة تنفى ذلك ، والدعاء ليس فى كل مكان يراد به العبادة قال تعالى : ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ أيقال إن الله تعالى عبد الزبانية لأنه دعاهم . انتهى كلامه .

وإنما سقناه بحروفه ليعلم المؤمن قدر ما أنعم الله عليه به من نعمة

الإسلام وما اختصه به من الكرامة ورفع المقام ، وليعتبر بما يراه من حال هؤلاء الضالين ، كيف تلاعب بهم الشيطان وأوصلهم إلى غاية من الجهل والضلال حجبهم بها عن معرفة الله ودينه وحقه على عبيده، وعن معرفة رسله ومعرفة حقهم وما يجب لهم وما يستحيل وأوهمهم مع ذلك أنهم من أهل العلم بشرعه ودينه فى التحريم والتحليل ، وهم كما ترى ليس معهم من الإسلام أصل ولا خبر ، ولم يقعوا من ذلك على عين ولا أثر ، فإن حاصل ما قرره هنا أن الله تعالى لم يحرم عبادة الأنبياء والملائكة والصالحين ودعاءهم ، وإنما حرم اعتقاد الاستقلال من دونه واعتقاد الربوبية فيها ، وأن العبادة هى السجود فقط مع اعتقاد أنها أرباب وهى الأصنام والأخشاب والأحجار لا تملك شيئاً ، وأن النداء يجوز لأنه ليس بعبادة ، وإن لم يذكر قط كون النداء عبادة، وما ذكره الشيخ تقى الدين هو من باب الزجر والإشارة وله أكثر من مائة عبارة تنفى كون نداء الأنبياء والصالحين عبادة .

ومن فهم من كلام الله تحريم دعاء الصالحين فهو مخطىء ضال منفرد بهذا الفهم هذا حاصل كلامه ، فيا ويحه ما أكبر زلته وما أغلظ كفره ، وما أشد عداوته لما جاءت به الرسل واتفقت عليه دعوتهم، وهذا النوع هم أعوان إبليس وأنصاره فى كل زمان ومكان ، ظهروا للناس فى ثياب القراء والعلماء ، وهم من أجهل من تحت أديم السماء .

يا فرقة ما خان دين محمد وجنى عليه وملَه إلا هى

وفى كلام هذا من الكذب على الله والكذب على رسوله وعلى أولى العلم من ورثته ، والقول عليه بغير علم ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، والكذب على اللغة والشرع ما يعز استيفاء الكلام عليه واستقصاؤه .

فقوله إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفهم من هذه الآية ونحوها تكفير من دعا الأنبياء والصالحين ، كذبٌ على الرسول ونسبة مالا يليق بآحاد المؤمنين إليه . وهل وقعت الخصومة وجرد السيف ودعا من دعا من أهل الكتاب إلى المباهلة ، وأمر بقتالهم حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية ، إلا لأجل عبادة الأنبياء والصالحين ودعائهم . وهل صورت الأصنام وعبدت إلا باعتبار من هى على صورته وتمثاله من الأنبياء والملائكة والصالحين .

والآيات التى يعبر فيها بالموصول وصلته كقوله : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ ونحوها من الآيات كقوله تعالى : ولا تدع من دون الله الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ .

فهذه الموصولات فى كلام الله وكلام رسوله واقعة على كل مدعوّ

ومعبود نبياً أو ملـكاً أو صالحاً إنسياً أو جنياً حجراً أو شجراً ، متناولة لذلك بأصل الوضع . فإن الصلة كاشفة ومبينة للمراد وهى واقعة على كل مدعو من غير تخصيص . وهى أبلغ وأدل وأشمل من الأعلام الشخصية والجنسية ، وهذا هو الوجه فى إيثارها على الأعلام ، وشرط الصلة أن تـكون معهودة عند المخاطب . تقول : جاء الذى قام أبوه ، لمن يعهد قيام الأب ويجهل النسبة بينه وبين من جاء . والمعهود عند كل من يعقل من أصناف بنى آدم أن الأنبياء والملائـكة والصالحين قد عبدوا مع الله وقصدهم المشركون بالدعاء فى حاجاتهم وملماتهم كما جرى لليهود والنصارى فى عبادة الأنبياء والأحبار والرهبان وكما جرى لقوم نوح فى ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . وكما جرى للعرب فى عبادة الملائـكة واللات وهو رجل صالح كان يلت السويق للحاج .

وهذا أوضح من أن يحتاج لتقرير وأظهر من أن يتوقف على كشف وتفسير . فإن العربى سليم الذوق والفطرة يعرف بعربيته وفطرته . وجميع المفسرين يقررون هـذا بضروب من العبارات والتقريرات ويفهمها الذكى ، ومن خص الأصنام فى بعض المواضع فهو لا يمنع أنها عبدت باعتبار من هى على صورته .

وقد ذكر هذا ابن كثير فى تفسيره ، وذكره غيره من أهل العلم

وقد كذب هذا عليهم ونسبهم إلى الجهل ، كما كذب على الله ورسوله قال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ . وأيضاً فقد قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

فإن نازع هذا فى عموم النفى فهو على مذهب من قال أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب . وإن سلم العموم وزعم أن دعاء الصالحين ونداءهم ليس بعبادة ولا دعاء فقد خرج عن المعقول والمنقول وأتى بجهالة حمقى خرج بها عما قاله جميع أئمة العلم والهدى .

وقوله تعالى عن نبيه يوسف : ﴿ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ هى من هذا الباب فإن تفرق الآلهة والأرباب يصدق بعبادة الأنبياء والصالحين . ومن نازع فى هذا فليس من جملة العقلاء ، ولا ممن يعرف الضروريات التى يعرفها الحمقى ، هذا لو لم يرد فى عبادة الأنبياء والصالحين والملائكة نصوص خاصة .

وقد جاء فى ذلك ما فيه الهدى والشفاء . قال تعالى ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ . والأرباب هنا هم الآلهة المعبودة فإن الرب وضع للمعبود

كما وضع للمالك والمربى والخالق ، وليس هذا من المشترك ولا من المتواطىء ، بل هو من استعمال اللفظ فى حقيقته اللغوية والشرعية .

وبهذا يستبين لك خطأ العراقى فى قوله على أنها أرباب فإنه يريد بهذا القيد أنها لا تكون عبادة إلا مع اعتقاد التدبير والتأثير لها كما تقدم عنه صريحاً .

وقال تعالى فيمن عبد الصالحين بطاعتهم من دون الله وغلا فى الأنبياء ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية . فسرها النبى صلى الله عليه وسلم لعدى ابن حاتم بطاعتهم فى التحليل والتحريم المخالف لأحكام الله تعالى .

وقال تعالى فيمن عبد الصالحين : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ الآية . وهذه فيمن عبد الصالحين من الجن والإنس والملائكة كما فسرها بذلك غير واحد من السلف ، ويدل عليه قوله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ ، وقد وصفهم بأنهم لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من حال إلى حال وإن قل ، كما يفيده النكرة فى سياق النفى ، فبطل دعاؤهم بما لا يقدر عليه إلا الله . وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى

الأرض ﴾ الآية . نفى أن يكون لهؤلاء المدعوين ملك فى السموات والأرض ولو قل كمثقال ذرة . وهذا هو الذى يعبر عنه بالاستقلال ، ونفى أن يكون لهم فيهما شرك ولو قل كما يفيده قوله من شرك ، فإنه يفيد استغراق النفى .

ونفى أن يكون له منهم من ظهير يعاونه و يؤازره ، و إذا بطل الملك والشركة والمعاونة لم يبق سوى الشفاعة ، فنفاها بقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ . فإن هذا يفيد إبطال الشفاعة التى ظنها المشرك ودعا غير الله لأجلها . وقد دل القرآن على نفيها فى مواضع ، والشفاعة المثبتة التى دل عليها الاستثناء وجاءت بها الأحاديث النبوية نوع آخر غير ما ظنه المشركون .

وحقيقتها : أن الله تعالى إذا أراد رحمة عبده ونجاته أذن لمن شاء فى الشفاعة رحمة للمشفوع فيه وكرامة للشافع . وقيدت الشفاعة المثبتة بقيود منها إذنه تعالى للشافع ونكتة هذا القيد وسره صرف الوجوه إلى الله ، و إسلامها له ، وعدم التعلق على غيره لأجل الشفاعة . ولذلك يساق هذا بعد ذكر التوحيد ، وما يدل على وجوب عبادة الله وحده ، وهذا الموضع لم يفهمه كثير من الناس ظنوا أن الاستثناء يفيد إثبات الشفاعة مطلقاً وطلبها من غير الله فعادوا إلى ماظنه المشركون وقصدوه ،

قال تعالى : ﴿ و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ . ومنها : أنه لا يشفع أحد إلا فيمن رضى الله قوله وعمله . قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ . ومن الآيات الخاصة بمن يدعوا الملائكة وأمثالهم قوله تعالى: ﴿ و يوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾[1] الآية.

---

(١) وقال الإمام العلامة مولانا الآلوسى قدس سره فى تفسيره روح المعانى عند قوله تعالى فى سورة يونس «دعوا الله مخلصين له الدين» ما بعضه «وأياما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى فى تلك الحالة ، وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم فى بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر والياس ، ومنهم من ينادى أبا الخميس والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ولا ترى فيهم أحداً إلا القليل يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال فبالله تعالى عليك قل لى أى الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلا ، وأى الداعين أقوم قيلا وإلى الله سبحانه المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة وغرقت سفينة الشريعة ، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف ، وحالت دون النهى عن المنكر صنوف الحتوف » انتهى . ومثل هذا فى كتاب الغنية لسيدى القطب الكيلانى وفى الإحياء للامام الغزالى ، والعقد الثمين للعلامة الشيخ على السويدى البغدادى وغيرها من كتب الأئمة فراجعها إن شئت .

الفقير أحمد

وقال تعالى فى شأن المسيح : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾ . فتأمل ما فيها من العلوم إن كنت من ذوى الألباب والفهوم .

منها : أن اتخاذ الأنبياء والصالحين آلهة شرك ينبغى تنزيه الرب تعالى عنه . وفيها : براءة أولياء الله ممن أشرك بهم . وفيها : أن الرسل ما أمرت الخلق إلا بما أرسلوا به من عبادة الله وحده . وفيها : برهان ما جاءت به الرسل من الأمر بالعبادة . وأن الرب الذى عمت ربوبيته جميع خلقه هو المستحق أن يعبد وأن العبد المربوب ولو علت درجته كعيسى وغيره من الرسل أو الملائكة لا يكون شريكا لربه ومالكه ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ الآية .

والقرآن كله يدل على هذا ولكن من عادة القرآن مراعاة ما تقتضيه الحال فيطنب فى محل الإطناب ، ويوجز فى محل الإيجاز ، والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

فظهر أن آية سورة فاطر التى أوردها دالة على ما دل عليه سائر الآيات وأن فيها من العموم المستفاد من الصلة ما لايتأتى معه التخصيص وأن ما تقدم من الآيات دال على ذلك بعضد مفهوم من أوردها فى المنع من دعاء الصالحين .

فصــل

وقول العراقى : هذه الآية صحيحة لـكن الفهم باطل ، مما يدل على جهله المركب وكثافة فهمه ، فإن القرآن أغنى وأعلا وأجل وأعظم من أن يعبر عنه بهذه العبارة ، أو يقسم إلى صحيح وغيره . وإنما تستعمل هذه العبارة فيما يقبل القسمة من الأحاديث ، لأنها تنقسم إلى صحيح وحسن وضعيف وموضوع ، ولا يصحح إلا من يضعف ، ولا يحسن إلا من يقبح . وقد أنـكر أبو حنيفة على رجل صار يحسن ما يسمع منه من الروايات وزجره عن ذلك ، وقال : « إنما يحسن من يقبح » .

هذا فى السنة ونحوها فـكيف بالقرآن الذى هو كله حق وهدى ، تنزيل من حكيم حميد .

وقوله : إن الدعاء هو السجود فى هذه الآية ، وأن نداء الصالحين ليس بعبادة إلى آخر عبارته . فهذا الـكلام نشأ عن جهله باللغة والشرع ، وما جاءت به الأنبياء ، فإن العبادة تتضمن غاية الخضوع والذل ، ومنه طريق معبد : إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام ، هذا أصلها فى اللغة .

وأما فى الشرع فهى إسم جامع لـكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . قاله شيخ الإسلام .

وقال بعضهم : هي ماأمر به شرعاً من غير اقتضاء عقلي ولا اطراء عرفي . وقال بعضهم : هي فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهى الله عنه ورسوله ، ابتغاء وجه الله والدار الآخرة .

فدخل في هذه التعاريف والحدود جميع أنواع العبادات فلا يقصد بها غير الله ولا تصرف لسواه . وهذا الغبي لم يعرف من أفرادها غير السجود ، ودعاء المسألة من أفضل أنواعها ، وأجلها ، كما في حديث النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدعاء هو العبادة » والحصر يقتضي الاختصاص الادعائي والتميـيز على سائر العبادات . قال بعض الشراح هو كقوله « الحج عرفة » أي ركن العبادة الأعظم هو الدعاء ، وفي حديث أنس : « الدعاء مخ العبادة » ومخ الشيء خالصه ولبه ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين » والعماد : والعمود : ما يقوم به الشيء ويعتمد عليه جعله عماد لأنه لا يقوم إلا به . وأنت ترى كل العبادات الباطنة والظاهرة دالة على الطلب . والمسألة على اختلاف المطلوب والمسئول .

وكان هذا هو الوجه في التعبير بالدعاء دون العبادة في أكثر موارد القرآن والسنة . ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الدعاء

يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير» . وقد سئل ابن عيينة عن معناه فأنشد قول أمية فى عبد الله ابن جدعان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء

قال فى القاموس : الدعاء هو الرغبة إلى الله ، انتهى وقال الحسين ابن محمد النعمى : الدعاء فى الأصل موضوع لأن يكون من فقير عاجز خاضع لغنى قادر عزيز قاهر ، انتهى .

والدعاء يرد فى الكتاب والسنة بمعنى الطلب والمسألة بامتثال الأمر واجتناب النهى . ويرد بمعنى المسألة والطلب بالصيغة القولية . وقد فسر قوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾ الآية . بدعاء العبادة وبدعاء المسألة والقولان معروفان ، والآية تشمل النوعين . قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ، وذكر أنهما متلازمان فكل عابد سائل ، وكل سائل عابد . وقال رحمه الله والدعاء والدعوة فى القرآن يتناول معنيين دعاء العبادة ودعاء المسألة . وساق جملة من الآيات ثم قال : ولفظ الصلاة فى اللغة بمعنى الدعاء ، وسميت به لتضمنها معنى الدعاء دعاء العبادة والمسألة ثم قال فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه ، ولكن إذا جمع بينهما فيراد بالسائل من يطلب بصيغة

السؤال ، ويراد بالعابد من يطلب ذلك بامتثال الأمر . وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال ، وسمى الذكر دعاء لما فيه من التعريض بالمسألة .

قال : وهذه الصيغة صيغة الطلب والاستدعاء إذا كانت مما لا يحتاج إليه الطالب ، أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك فإنها تقال على وجه الأمر ، إما لما فى ذلك من حاجة الطالب . وإما لما فيه من نفع المطلوب منه . وأما إذا كانت من الفقير من كل وجه ، للغنى من كل وجه ، فإنها سؤال محض بتذلل وافتقار ، انتهى .

قلت : وقد نص على ماذكره الشيخ من الفرق علماء المعانى صاحب المفتاح وغيره . وفرقوا فى الصيغة الواحدة نظراً للمخاطب والمخاطب بكسر الطاء . فقالوا : هى من الأعلى أمر ، ومن المساوى التماس ، ومن دونه مسألة وطلب .

وقد فسر قوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ بدعاء . المسألة قاله العلامة ابن القيم . وقوله أنه فى هذه الآية أظهر ، وذكر أن استعمال الدعاء فى العبادة والمسألة من استعمال اللفظ فى حقيقته الواحدة ، ليس من المشترك ولا المتواطىء ولا المجاز . وقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ ظاهر فى دعاء المسألة لمناسبة الحال والواقع ، فى حديث عكرمة بن أبى جهل لما فر

يوم الفتح إلى السيف وركب البحر جاءتهم ريح عاصف ، وظنوا الهلكة ، أخلصوا الدعاء لله ، وصاروا يتواصون بذلك ، ويقول بعضهم لبعض لا ينجى فى مثل هذا إلا الله فقال عكرمة إن كان لا ينجى فى الشدة إلا هو تعالى ، فكذلك لا ينجى فى الرخاء إلا هو . وقال : لئن أنجانى الله لأرجعن إلى محمد ، ولأضعن يدى فى يده فكان ذلك وأسلم وحسن إسلامه رحمه الله تعالى . والقصة معروفة عند أهل العلم : وفى الحديث : « دعوة أخى ذى النون ما دعى بها مكروب إلا فرج الله عنه » سماها دعوة وهى سؤال وطلب وتوسل بالتوحيد

والعراقى يقول : لا تسمى دعاء وإنما هى نداء . وهذا رد على رسول الله وتكذيب بآيات الله وقول على الله بغير علم . وفى السنن من حديث حصين بن عبد الرحمن الخزاعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له حين أسلم : « كم كنت تعبد » قال : سبعة واحد فى السماء وستة فى الأرض قال : « فمن الذى تعد لرغبتك ورهبتك » قال : الذى فى السماء .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ﴾ الآية . وهذا الدعاء ظاهر فى دعاء المسألة حال الشدة والضرورة . وقال تعالى : ﴿ فإذا

ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ الآية . وما زال أهل العلم يستدلون بالآيات التى فيها الأمر بدعاء الله والنهى عن دعاء غيره على المنع من مسألة المخلوق ودعائه ، بما لا يقدر عليه إلا الله وكتبهم مشحونة بذلك[1] لا سيما شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم الذين يزعم هذا العراقى أنه على طريقتهما .

أيها المـدعى سليمى سفاهاً لست منهـا ولا قلامة ظفر

إنمـا أنت من سليمى كواو ألحقت فى الهجاء ظلماً بعمرو

وضح هذا أن مالا يقدر عليه من الأمور العامة الـكلية لهداية القلوب ، ومغفرة الذنوب ، والنصر على الأعداء ، وطلب الرزق من غير

---

(١) قال أبو محمد عبد القادر الـكيلانى فى كتابه فتوح الغيب والغنية : ينبغى لـكل مسلم موحد ألا يتـكل إلا على الله ، ولا يستغيث إلا بالله ، ولا يعتقـد التصرف إلا لله ، وأن يجعل مرآة عمله حديث ابن عباس قال كنت راكباً خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ياغلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » ويكفيك أيها المسترشد قوله تعالى فى الفاتحة التى تقرؤها فى صلاتك : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فلا تعبد غيره ، ولا تستعن إلا به ، ولا تطلب إلا منه ، فهذا هو التوحيد . انتهى .

الفقير أحمد

جهة معينة والفوز بالجنة ، والإنقاذ من النار ، ونحو ذلك غاية فى القصد والإرادة فسؤاله وطلبه غاية فى السؤال والطلب . وفى ذلك من الذل وإظهار الفاقة والعبودية ، مالا ينبغى أن يكون لمخلوق أو يقصد به غير الله . وهذا أحد الوجوه فى الفرق بين دعاء المخلوق فيما يقدر عليه من الأسباب العادية الجزئية ، و بين ما تقدم مع أن سؤال المخلوق قد يحرم مطلقاً . ومسألة المخلوق فى الأصل محرمة و إنما أبيحت للضرورة . قال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ﴾ . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه بايع نفراً من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً . فكان أحدهم يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولنيه . وقد اشتهر عنه صلى الله عليه وسلم أنه منع من تعليق الأوتار والتمائم وأمر بقطعها ، و بعث رسوله بذلك كما فى السنن وغيرها . وقال : « من تعلق شيئاً وكل إليه » . بل نهى عن قول الرجل ما شاء الله وشئت . وقال لمن قال له ذلك « أجعلتنى لله نداً » ومنع من التبرك بالأشجار والأحجار . وقال لأبى واقد الليثى وأصحابه من مسلمة الفتح لما قالوا له اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط « قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » . ونهى عن الصلاة عند القبور و إن لم يقصدها المصلى . ولعن من فعل ذلك وأخبر أنهم شرار الخلق عند الله . ونهى عن الذبح لله فى مكان يذبح

فيه لغيره حسما لمادة الشرك ، وقطعاً لوسائله ، وسداً لذرائعه ، وحماية للتوحيد ، وصيانة لجانبه ، فمن المستحيل شرعاً وفطرة وعقلا ؛ أن تأتى هذه الشريعة المطهرة الكاملة بإباحة دعاء الموتى والغائبين والاستغاثة بهم فى المهمات والملمات . كقول النصرانى : يا والدة المسيح اشفعى لنا إلى الإله ، أو يا عيسى اعطنى كذا ، وافعل لى كذا ، وكذلك قول القائل يا على أو يا حسين أو يا عباس أو يا عبد القادر أو يا عيدروس أو يا بدوى أو فلان وفلان أعطنى كذا أو أجرنى من كذا أو أنا فى حسبك أو نحو ذلك من الألفاظ الشركية التى تتضمن العدل بالله والتسوية به تعالى وتقدس ، فهذا لا تأتى شريعة ولا رسالة بإباحته قط بل هو من شعب الشرك الظاهرة الموجبة للخلود فى النار ، ومقت العزيز الغفار .

وقد نص على ذلك مشايخ الإسلام حتى ذكره ابن حجر فى الأعلام مقرراً له ، وتأويل الجاهلين والميل إلى شبه المبطلين هو الذى أوقع هؤلاء وأسلافهم الماضين من أهل الكتاب والأميين فى الشرك بالله رب العالمين . فبعضهم يستدل على شركه بالمعجزات والكرامات . و بعضهم برؤيا المنامات . و بعضهم بالقياس على السوالف والعادات . و بعضهم يقول من يحسن به الظن ، وكل هذه الأشياء ليست من

الشرع فى شىء ، وعند رهبان النصارى وعباد الصليب والكوا كب من هذا الضرب شىء كثير . و بعضهم أحذق من هذا العراقى وأمثاله الذين لم يفهموا من العبادة سوى السجود ولم يجدوا فى معلومهم سواه ، فأين الحب والخضوع والتوكل والإنابة والخوف والرجاء والرغب والرهب والطاعة والتقوى ونحو ذلك من أنواع العبادة الباطنة والظاهرة .

فكل هذا عند العراقى يصرف لغير الله ولا يكون عبادة لأن العبادة السجود فقط بل عبارته تفهم أن السجود لا يحرم إلا على من زعم الاستقلال ، وقد رأينا كثيراً من المشركين ولم نر مثل هذا الرجل فى جهله ومجازفته و بلادته .

ولولا ما نقصده من انتفاع من اطلع على هذه الرسالة لم نتعرض لرد شىء من كلامه لظهور بطلانه . و يزيد هذا ظهوراً ما جاء فى الحديث من قوله: « من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته خدوشاً أو خموشاً فى وجهه يوم القيامة » . وقوله : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس على وجهه مزعة لحم » . وقوله : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أو شكر له بالغنى أو بموت عاجل أو غنى عاجل » . وقوله : « لا تحل المسألة إلا لثلاثة

لذى غرم مفضع ، أو فقر مدقع ، أو ذم موجع » هذا فى سؤال الخلق ما يقدرون عليه من الأسباب الجزئية فكيف ترى بما لا يقدر عليه إلا الله من الأمور العامة الكلية . وعلى زعم هذا العراقى لا يكره شىء من ذلك ولا يمنع منه لمن قصد الصالحين ودعاهم وقوله على أنها أرباب يريد به ما مر من أن دعاءها ومسألتها بطريق السبب والشفاعة لا يضر . وقد تقدم رد هذا بما يغنى عن إعادته ، وقد علق الحكم بالكفر وإباحة الدم والمال بنفس الشرك ، وعبادة غير الله قال تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ ، وقال : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ والفتنة : الشرك وقال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ . ومن المشتهر عندهم أن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بالعلية . وهذا الأحمق زاد قيداً فقال لا يشرك إلا من قصد واعتقد الاستقلال من دون الله ، وفى تلبية المشركين فى الجاهلية لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .

فهؤلاء لم يدعوا الاستقلال وعلى زعم هذا ليسوا بمشركين . وقوله وهذا نداء لا دعاء من أدل الأشياء على جهله ، وعدم ممارسته لشىء من العلم ، و إن قل فإن النداء هو رفع الصوت بالدعاء ، أو الأمر أو النهى و يقابله النجا الذى هو المسارة وخفض الصوت .

هذا بإجماع أهل اللغة كما حكاه ابن القيم فى نونيته . وشيخ الإسلام فى تسعينيته ، وليس قسيما للدعاء كما ظنه الغبي قال تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم ﴾ الآية . ما فعلوه هو عين ما أمروا به وكفى بهـــــذه الآية حجة على إبطال قوله . وقال تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه ﴾ ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل ﴾ ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه ﴾ . وسمى هذا النداء دعاء فى كتابه العزيز . قال عن نوح عليه السلام ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ . وقال : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه ﴾ . وفى الحديث « دعوة أخى ذى النون مادعا بها مكروب إلا فرج الله عنه » وفيه أيضاً « لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً » يعنى الشيطان الذى تفلت عليه صلى الله عليه وسلم . وفيه « ألا أنبئكم بأول امرىء وآخره دعوة أبى إبراهيم ، و بشارة عيسى يشير بدعوة سليمان » إلى قوله : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملــكا لاينبغى لأحد من بعدى ﴾ الآية . و بدعوة إبراهيم إلى قوله تعالى : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ الآية . فسمى هذه المسألة دعوة والتاء فيها للوحدة . وقال معاذ رضى الله تعالى عنه فى الطاعون إنه ليس برجزانه دعوة نبيــكم

وموت الصالحين قبلكم ورحمة بكم . يشير إلى قوله: « اللهم اجعل فناء أمتي بالطعن والطاعون » .

فانظر هذه النصوص . وما أفادت من إطلاق اسم الدعاء على المسألة والطلب . وقد تقدم بعض هذا وكرر تتميما للفائدة وربما جر شأن شؤونا . وأما قول العراقى إن الشيخ ذكر هذا على هذا سبيل التغليظ والزجر وله مائة عبارة تنفى ذلك وتخالفه فيكفى من هذا العراقى أن يصحح دعواه بعبارة واحدة ولا نكلفه تصحيح المائة لأنه أعجز وأقل ، وقد تقدم التنبيه على كذبه ومجازفته وأنه وجد كتبا ومواد شتت فهمه وحجبت إدراكه وعلمه فلم يزدد بها إلا حيرة وشكاً . وما أحسن ما قيل :

جهد المغفل فى الزمان مضيع وإن ارتضى أستاذه وزمانه

كالثور فى الدولاب يسعى وهو لا يدرى الطريق فلا يزال مكانه

وعبارات الشيخ فى هذا الباب أعنى إنكار الشرك وتكفير أهله والحكم عليهم بما حكم الله به ورسوله فى الدنيا والآخرة ، موجود مشهور لو تتبعناه لعز حصره واستقصاؤه . ولكن نشير لبعضه إلى ما وراءه .

قال رحمه الله : وما علمت عالماً نازع فى أن الاستغاثة بالنبي أو غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله لا تجوز ، قال : وعلو درجته صلى الله عليه وسلم بعد الموت لاتقتضى أن يسأل كما لا تقتضى أن يستفتى ، ولا يمكن أحد أن يذكر دليلا شرعياً على أن سؤال الموتى من الأنبياء والصالحين وغيرهم مشروع ، بل الأدلة على تحريم ذلك كثيرة . وقال رحمه الله : من جعل بينه و بين الله وسائط يدعوهم و يتوكل عليهم و يسألهم كفر إجماعاً ، قال البهوتى فى شرحه على هـــذا الموضع : لأنه فعل عباد الأصنام القائلين : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقال رحمه الله بعد أن سرد جملة من الآيات . وتفصيل القول أن مطلوب العبد إن كان من الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله سبحـانه وتعالى مثل أن يطلب شفاء مريض من الآدميين والبهائم ، ووفاء دينه من غيرجهة معينة ، أو عافية أهله أو مابه من بلاء الدنيا والآخرة ، وانتصاره على عدوه وهداية قلبه وغفران ذنبه ، أو دخول الجنة ونجاته من النار ، أو أن يتعلم القرآن أو العلم أو أن يصلح قلبه أو يحسن خلقه و يزكى نفسه وأمثال ذلك .فهذه الأمور لايجوز أن تطلب إلامن الله تعالى ولايجوز أن يقال لملك ولا نبي ولا شيخ سواء كان حياً أو ميتاً اغفر ذنبي ولاانصرنى على عدوى ، ولا أشف مريضى ، ولا عافنى وعاف أهلى ودوابى ، وما أشبه ذلك . ومن سأل ذلك مخلوقاً كائناً من كان ، فهو مشرك

بربه من المشركين الذين يعبدون الملائكة والتماثيل التى يصورونها على صورهم ، ومن جنس دعاء النصارى المسيح وأمه .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ الآية . وقال رحمه الله : وكثير من الناس يقع فى الشرك والإفك جهلا وضلالاً من المشركين وأهل الكتاب ، وأهل البدع ، والله سبحانه وتعالى قد أرسل جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه بأنه لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ، لا يعبد معه لا ملك ولا نبى ، ولا صالح ، ولا تماثيلهم ولا قبورهم ، ولا شمس ولا قمر ولا كوكب ، ولا ما صنع من التماثيل لأجلهم ، ولا شيئاً من الأشياء ، وبين أن كل ما يعبد من دونه فإنه يضر ولا ينفع ، وإن كان ملكاً أو نبيًّا وأن عبادته كفر .

قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ إلى قوله : ﴿ محذوراً ﴾ بين سبحانه أن كل ما يدعى من دونه من الملائكة والجن والإنس ما يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، وأن هؤلاء المدعوين من الملائكة .

والأنبياء يتقربون إلى الله ويرجونه ويخافونه ، وكذلك كان

قوم من الإنس يعبدون رجالا من الجن ، فآمنت الجن المعبودون و بقى عابدوهم يعبدونهم . كما ذكر ذلك ابن مسعود ؛ وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ بين سبحانه أن كل ما يدعى من دونه من الملائكة والبشر وغيرهم ليس لهم مثقال ذرة فى السموات والأرض ، ولا لهم نصيب فيهما ، وليس لله ظهير يعاونه من خلقه .

وهذه الأقسام الثلاثة هى التى تحصل مع المخلوقين ، أما أن يكون لغيره ملك دونه ، أو يكون شريكا له ، أو يكون معيناً وظهيراً له ، والرب تعالى ليس من خلقه مالك ولا شريك ولا ظهير له ، لم يبق إلا الشفاعة ، وهو دعاء الشافع وسؤاله لله فى المشفوع له ، فقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له ﴾ . ثم إنه خص بالذكر الملائكة والأنبياء فى قوله : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ــ إلى قوله ــ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ بين أن اتخاذهم أرباباً كفر . وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ــ إلى قوله ــ والله هو السميع العليم ﴾ . وقد بين أن من دعا المسيح وغيره ، فقد دعا ما لا يملك له ضراً ولا نفعاً . وقال خاتم الرسل : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى

ملك ﴾ . وقال : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ الآية ، وقال : ﴿ قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ ؛ وقال : ﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، ليس لك من الأمر شىء ﴾ الآية . وقال : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ . وقال : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ انتهى .

وكلامه فى هذا المعنى يعز حصره أو يتعذر . وكذلك صاحبه شمس الدين ابن القيم ، كلامه فى هذا الباب أشهر من أن يذكر ، وأكثر من أن يحصر ، إلا بكلفة ومشقة ، وتقدم قوله فى المدارج .

وقال أبو الوفا بن عقيل : لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام ، عدلوا عن أوضاع الشرك إلى تعظيم أوضاع وضعوها هم لأنفسهم فسهلت غيرهم إذ لم يدخلوا بها تحت غيرهم ، وهم عندى كفار بهذه الأوضاع ، مثل خطاب الموتى بالحوائج ، ودس الرقاع فى قبورهم ، فيها : يا مولاى افعل بى كذا وكذا ، وتعليق الستور على القبور اقتداء بمن عبد اللات والعزى ، والويل عندهم لمن لم يحضر مشهد الكفر ، أو لم يعقد على قبره ، أو قبر أبيه بالآجر ، ولم يقل الحمالون على جنازته أبو بكر وعمر ، انتهى .

والمقصود أن النصوص بهذا المعنى كثيرة شهيرة ، والعاقل يسير فينظر ، ويكفى المؤمن أن دعاء الموتى والغائبين لا يعرف عن أحد من أهل العلم والإيمان الذين لهم لسان صدق فى الأمة ولم تأت به شريعة من الشرائع ، بل المنقول عن جميع الأنبياء يرده ويبطله . فإن الله حكى أدعيتهم وتوجهاتهم وما قالوه وأمروا به ، وندب عباده إلى الاقتداء بهم فقال تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقد أجمع المسلمون على ذم البدع وعيبها . قال تعالى ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾ وقال تعالى ﴿قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السماوات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ . وفى حديث العرباض ابن سارية « أنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » وهذا الوجه كافٍ فى الجواب للاتفاق على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة .

فصل

قال العراقى : والأصل فى ذلك قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ الآية .

قلت : يريد العراقى أن الآية أصل فى دعاء الصالحين والتوجه بهم إلى الله وجعلهم وسائط بين العباد و بين الله ووسائل إليه فى قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم .

والجواب : أن هذا القول صدر عن جهل بمسمى الوسيلة شرعاً ، فإن الوسيلة فى شرع الله الذى شرعه على ألسن جميع رسله ، هى عبادته وحدهُ لا شريك لهُ والإيمان به و برسله والأعمال الصالحة التى يحبها ويرضاها كما فى البخارى وغيره من حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فى غار فتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة من البر والعفة والأمانة وكذلك ما شرع من واجب أو مستحب . قال تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وابتغاؤها بالقيام بما أمر به وأحبه ورضيه من الأعمال الصالحة . وأما دعاء غير الله فليس وسيلة شرعية، بل هو وسيلة أهل الشرك والجاهلية من أعداء الرسل فى كل زمان ومكان ، والله لا يأمر بالشرك ولا يرضاه. ﴿قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ فكيف يتوسل إليه بالشرك به الذى هو أظلم الظلم ، وضد القسط ، والذى يمنع من إقامة الوجوه له عند المساجد وهو أى الشرك حقيقة التوسل الذى قصده المشركون . قال الله تعالى ﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون

الله قرباناً آلهة ﴾ وقال تعالى: ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . فهذا قد يسمى توسلا فإن لفظ التوسل صار مشتركاً فيطلق شرعاً على ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة التي يحبها الرب و يرضاها و يطلق على التوسل بذوات الصالحين ودعائهم واستغفارهم ، و يطلق في عرف عباد القبور على التوجه إلى الصالحين ودعائهم مع الله في الحاجات والملمات . والمراد بالآية الأول عند أهل العلم والمفسرين وأما التوسل بذوات الأنبياء والصالحين بدون طاعتهم و بدون استغفارهم فهذا لم يشرع ولا أصل له فإن التوسل بالأنبياء مع معصيتهم ومخالفتهم في الدين والملة قد دلت آية سورة التحريم على المنع منه وعدم الانتفاع بالتعلق والقرابة والنسب والتوسل بذلك لمن لم يؤمن بما جاءوا به من الهدى ودين الحق . وكذلك في الحديث لما أنزل عليه قوله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً » . وأكبر من هذا من يدعوهم و يستغيث بهم و يتقرب إليهم بعبادتهم على أنها وسيلة له وشفعاء فإن هذا هو عين الشرك الذي ذمه القرآن وعابه و إن سمي توسلا وأما ماذكره بعد هذا الكلام من نسبة الذي ينهى عن دعاء غير الله إلى الجهل وعدم الفهم فهذا يتناول كل من نهى عن دعاء الأنبياء

والصالحين ، ومعلوم أن الرسل نهت عن دعاء غير الله بما لا يقدر عليه إلا الله بل وفيما لا تدعو إليه حاجة ولا ضرورة من جنس المسألة ، فلازم كلامه مسبة الأنبياء وأتباعهم إلى يوم القيامة فنعوذ بالله من حال أهل الجهالة والسفاهة .

فصل

قال العراقي : إنكم تكفرون بالحلف بغير الله ويكفر به السابقون من أهل بلدكم ، وهو ليس بشرك ولا كفر بل هو مكروه كراهة تنزيه للأدلة على ذلك . ولأنه قد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه لا وأبيك ، ولأن الترمذي ترجم على هذه المسألة بالكراهة ، وساق حديث ابن عمر من حلف بغير الله فقد أشرك ، وأن هذا يدل على الكراهة للترجمة ، ولأنه ساق الرواية الأخرى عن ابن عمر « من حلف بغير الله فقد كفر » وقال بعد هذا محمول على التغليظ والزجر كالريا الذي فسر به قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ﴾ الآية .

والجواب : أن يقال في هذا الكلام من الجهل والخلط ما يتنزه عنه العاقل فضلا عن العالم ، من ذلك أنه قال الحلف بغير الله ليس بشرك ولا كفر . ثم ساق حديث ابن عمر من حلف بغير الله فقد

أشرك ثم قادته المقادير إلى أن نطق بالرواية الأخرى من حلف بغير الله فقد كفر ، فقف وتأمل هذه العبر ، ثم استدل بأن الترمذى ترجم بالكراهة وهو أول من يخالف الترمذى فى أكثر مافى سننه ، مع أنه لم يفهم كلام الترمذى ، ولا حام حول مراده .

ويقال : مسألة الحلف بغير الله تظاهرت وتواترت النصوص النبوية بالنهى عنها ، ودلت على أنه شرك لا يحل ولا يجوز كما ذكره أصحاب الكتب الستة وأهل المسانيد من حديث أبى هريرة وعمر ابنه وابن مسعود وغيرهم ، وإنما ساق الترمذى حديث ابن عمر والترمذى رحمه الله أثبت أنه شرك وجعله كالريا ، والريا شرك بالنص والإجماع، وهو من الكبائر إلا أنه ليس مما ينقل عن الملة ، ويوجب الردة للآيات والأحاديث . وكلام الترمذى يدل على هذا ، وقد جعله مثل الريا وقاسه عليه فى الحكم ، وحمله على هذا الحمل والتأويل أن الرواية الأخرى التى خرجها عن ابن عمر فيها تكفير من حلف بغير الله ، والحكم بأنه كفر وأراد الترمذى أن هذا الكفر ليس هو مما يخرج عن الملة كالشرك الأكبر بل كفر دون كفر ، وشرك دون شرك ، وظلم دون ظلم ، كما قاله البخارى فى صحيحه وتسميته هذا كفراً من باب التغليظ هذا مراده رحمه الله . وأما كونه شركاً محرماً فلم ينفه الترمذى ولم يتعرض له بتأويل ، بل أثبته وقال به لأنه جعله مثل الريا . وهذا

الجاهل اغتر بكونه ترجم بالكراهة . والكراهة فى عرف هذا الرجل إنما تطلق على التنزيه ، هذا وجه ضلاله ولم يدر أن إطلاقها على كراهة التنزيه عرف حادث . وأن الكراهة فى عرف الكتاب والسنة وقدماء الأمة تطلق على التحريم . قال تعالى بعد أن ذكر المحرمات المتفق عليها فى جميع الكتب السماوية ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ .

وفى الحديث « إن الله يكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . وأظن هذا يحمل كل ما تقدم على كراهة التنزيه ، قال الترمذى رحمه الله : باب كراهة الحلف بغير الله ، وساق بسنده حديث ابن عمر من حلف بغير الله فقد أشرك . وسكت الترمذى على هذا ولم يتعقبه بتأويل . ثم قال . باب ، وساق بسنده الرواية الأخرى عن ابن عمر « من حلف بغير الله فقد كفر » وتأول لفظة كفر بأنها على وجه الزجر والتغليظ لأن الحلف بغير الله لا ينقل عن الملة ، بل هو كالريا فى عدم الردة وإن كان شركاً .

إذا عرفت هذا فالعراقى دلس وجعل البابين باباً واحداً ، وجعل كلام الترمذى فى تأويله لفظة كفر راجعاً إلى كلا البابين ، وأن الحلف مكروه كراهة تنزيه ، والترمذى لم يتعرض لكونها للتنزيه .

وأما قوله: إنكم تكفرون به ، وترون أنه كفر ، فهو كذب بحت

وفرية ظاهرة ما قال أحد ممن يعتد به عندنا أنه كفر مخرج عن الملة .
وقد يطلق العالم والمفتى ما أطلقه الرسول صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا
ويقف حيث وقف ، ومن أنكر هذا الإطلاق فقد أنكر على الرسول
صلى الله عليه وسلم .

على أن ابن قيم الجوزية قال : قد يكون ذلك شركاً أكبر بحسب
ما قام بقلب قائله ، وقاله القاضى عياض من المالكية . وهذا ظاهر
لا يخفى إذا قصد تعظيم من حلف به كتعظيم الله . وأما استدلال هذا
العراقى على عدم التحريم بقوله صلى الله عليه وسلم: « من حلف باللات
والعزى فليقل لا إله إلا الله » فهذا الاستدلال والفهم ليس بشىء .
والحديث دليل على التحريم والاستدلال به عليه هو عين الفقه عن الله
ورسوله لأنه أمر من حلف بغير الله أن يكفر بتجديد الإسلام والإتيان
بكلمة الإخلاص التى تضمنت البراءة من الشرك و إثبات التوحيد .

وقد قال لقريش وغيرهم من عباد الأصنام قولوا : « لا إله إلاَّ الله
تفلحوا » . وقال لعمه : «قل لا إله إلاَّ الله كلمة أحاج لك بها عندالله».

فإذا كان ذاك يدل على الكراهة فهذا أيضا إنما يدل عليها .
فسبحان من حال بين قلوب هؤلاء و بين الفقه عنه ، ومعرفة المراد من
كلامه وكلام رسوله . وفى الحديث :« أن حسنة التوحيد تمحو الشرك

وتكفره فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله » . قال ابن مسعود . لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقاً .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس سره بعد أن ذكر تحريم الحلف واستدل له : ومعنى قول ابن مسعود أن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب ، مع أن الكذب محرم بالإجماع . وأما ماحكاه عن شيخنا الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أنه قال : فى مختصر الإنصاف ، ويكره الحلف بغير الله ، وأن الشيخ استدل للكراهة ، فلايخفى أن العراقى دلس هنا ولبس ، فأسقط من العبارة كلام ابن عبد البر وحكاية الإجماع على التحريم ، هذا تدليسه وأما تلبيسه فإن الشيخ قال بعد ذلك وقيل يجوز فأخره وحكاه بصيغة التمريض . وذكر أن القائل استدل لهذا بأن الله أقسم بمخلوقاته و بقوله أفلح وأبيه إن صدق ، وبقوله فى حديث أبى العشراء أما وأبيك لو طعنت فى فخذها أجزاك . ثم تعقب الشيخ هذا وذكر أن أحمد لم يثبت حديث أبى العشراء . واستدل بقوله : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وبحديث ابن عمر « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقرر الشيخ أدلة التحريم . والشيخ رحمه الله فى كتاب التوحيد استدل على هذه المسألة بقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ . وترجم بالآية على هذه المسألة .

وساق حديث ابن عمر وما روى عن ابن عباس ومنه والله وحياتك .

وأما الجواب على قوله: أفلح وأبيه، وقوله: أما وأبيك فلأهل العلم عنه أجوبة معروفة فى محلها منها أن هذا ليس من جنس اليمين المقصودة بل هو ممـا جرى على ألسنتهم من غير قصد مثل قوله ، تربت يداك : ثـكلتك أمك ، ويح عمار . وهذا الجواب ذكره كثير من النـاس ، وقيل إن ذلك منسوخ . واستدل القائل لهذا القول بما لا يمكن أمثال هذا العراقى نقضه ، وبعضهم تـكلم فى المسند ولم يثبت هذا كما تقـدم عن أحمد فى حديث أبى العشراء .

وهذا آخر ما أوردناه : والحمد لله حمداً كثيراً كما ينبغى لـكرم وجهه وعز جلاله وعظيم سلطانه وصلى الله على عبده ورسوله محمد النبى الأمى وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين آمين .

تم طبع هـذا الرد القيم كتاب
« دلائل الرسوخ فى الرد على المنفوخ »
بمطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر
فى غرة ذى الحجة سـنة ١٣٨١ هـ
الموافق ٤ مايو (آيار) سنة ١٩٦٢م .

مدير المؤسسة
محمد على صبيح المدنى